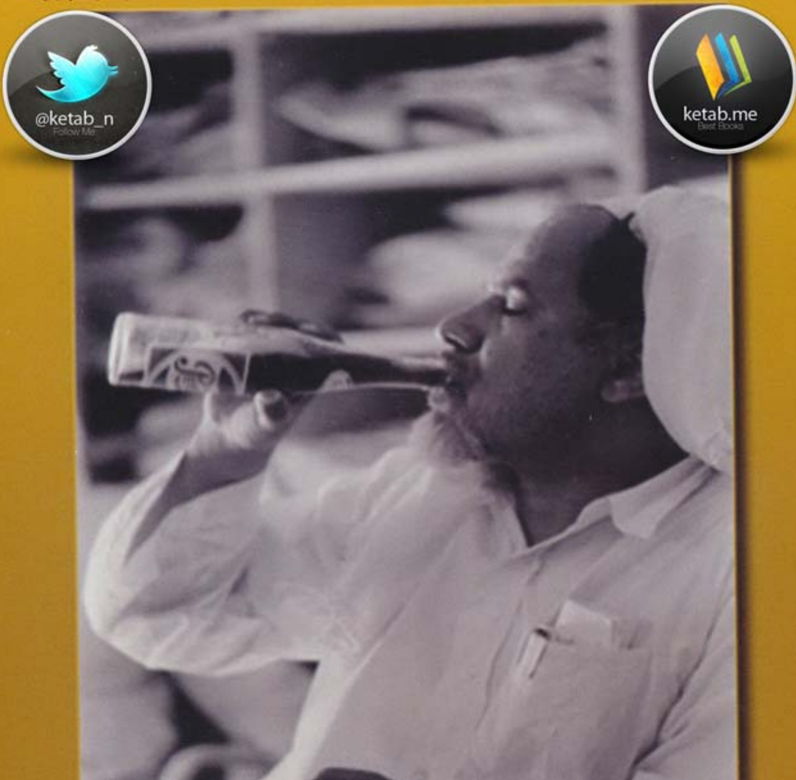
عبدالله بن بخيت

مذكّرات منسيّة

11.6.2013



طوى
للنشر والإعلام

عبدالله بن بخيت

مذكّرات منسيّة

ketab.me
Best Books

طوى
للنشر والإعلام

عبدالله بن بخيت: مذكرات منسية

Book: Mozakarat Mansyeh

الكتاب: مذكّرات منسيّة

Author: Abdullah Bakeet

المؤلف: عبدالله بن بخيت

Cover: Ahmad Al-oraij

الغلاف: أحمد العريج

First Edition: 2012

الطبعة الأولى ٢٠١٢

طوى للثقافة والنشر والإعلام - لندن

TUWA MEDIA & PUBLISHING LIMITED

19 TANFIELD AVENUE, LONDON, NW2, UNITED KINGDOM

Email: tuwa@london.com

Tel: 009662108111 - 00966505481425

التوزيع: منشورات الجمل

تلفون وفاكس: ٣٥٢٣٠٤ - ٠١ - ٠٠٩٦١

ص.ب: ٥٤٣٨ - ١١٣ بيروت - لبنان

© *Al-Kamel Verlag 2012*

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany

www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

البطحاء

لا يمكن أن أنسى المرة الأولى التي سمعت فيها بنظرية دارون. كان عمري ثلاث عشرة سنة. كل ما أعرفه في تلك الفترة من عمري أن العالم ينقسم قسمَين: قِسم خاص بالإنس، وقِسم خاص بالجن. وهذان العالمان يختلطان مرة وينفصلان مرة، ولا يمكن التحكُّم في العلاقة بينهما. ولأنني جزء من الإنس كان كل طموحي أن أعرف أي شيء عن الجن. كنت أخاف منهم، ولكن «حزام اليماني» صاحب الدكان قلص خوفي ووضعه في حدوده الدنيا. لم يكن «حزام» خبيراً في شؤون الجن، بل كان خبيراً في شؤون المجهولات بأشكالها. لا يتردَّد في تفسير أي ظاهرة غامضة. كان يُعتبر معلم الحارة. ودكانه بمثابةِ مدرسة متخصِّصة في شؤون الغيبيات واللا معقول وغير المتوقع. كان يقضي يومه كله في الدكان. يجلس فيه، ويأكل فيه، وينام فيه.

يذهب مرة واحدة في الأسبوع لشراء ما يلزم الدكان، ثم يعود بأسرع وقت، لتجده أمامك يحضّر للإجابة عن أي سؤال يطرأ على بالك. عيبه الوحيد أنه لا يصبر (لا يبيع بالدَّين)، وهذا لا يُرضي

كثيراً من العوائل ولاعبي «طاش ما طاش». صحيح أن الناس يحبون أن يسمعوا القصص، ويحبون العلم وتفسير المجهول، ولكن الناس لا يمكن أن يدفعوا نقداً، فاقتصرت نوعية زبائنه على أطفال الأخيلة الميّالين إلى سماع الحكايات والقصص وتفسير الظواهر، والبحث في العجائب والغرائب، وبعض الكبار المرعوبين الذين يبحثون عن مصائرهم وسط الألغاز الكونية.

أما الناس العمليُّون والواقعيون، وأبناء الأهالي «الطفرانين» فقد كانوا يتجمَّعون حول دكان هاشم. يلعبون ويصخبون، ويتضاربون إذا لزم الأمر. الفرق بين الدكّانين هو الفرق بين الشخصَين. كان هاشم شاباً في أوائل العشرين من عمره، يحب البيبسي والعلوك، وصور النساء، والطواقي الزري، ولا يتردَّد في إغلاق دكانه ساعات لحضور مباريات الهلال. هذه الحياة الصاخبة لا تتفق مع شخصية «حزام» الباحث والمتخصِّص في المجهول.

كان دكان «حزام» يتسم بالهدوء والسكينة. من الصعب أن يقصُص أي قِصّة، أو يُفسِّر أي ظاهرة في وضَح النهار. يُقاوم سُطوع الشمس بالتقلب على «كنبل» عتيق عند مدخل الدكان، فيبدو مُتعباً ومتعكِّر المزاج. يُجيب عن الأسئلة ولكن بكمياتٍ قليلة، ويؤجِّل التفاصيل إلى الليل. إذا انفرد بنفسه في عِز الظهر يتسلَّى بهرش سيقانه الشهب، أو العبث بكولة خضراء، من الصعب

أن تلاحظ اللهيب وسط الأبخرة السوداء التي تطلقها. تبدأ حياته الحقيقية في الليل. وتعود إليه الحيوية والنشاط، وتُضاء وجناته الشائخة بالابتسامات والضحكات المتلاحقة. يفرش «كنبله» على مقدِّمة الدكان بعد أن يرش الأرض بالماء، ثم يضع كل ما يحتاجه من معاميل أمامه. لا يعود إلى داخل الدكان مرة أخرى، وأي زبون يريد شيئاً عليه أن يدخل ويأخذ ما يريد بنفسه.

ورغم الاشتراك في نوع التجارة لا تلمس منه أي حِسٍّ منافسة مع هاشم. لا يشعر بوجود هاشم على مقربةٍ منه، كأنه يجلس في دكانه لأغراض أخرى غير البيع والشراء. لا تهمُّه سُخرية الناس من تدنِّي مبيعاته. لم يفكِّر في تطوير علاقته بزبائنه. يكفيه أن هناك مَن يصدِّق حكاياته، ويطلب المشورة منه في الأمور الغامضة.

كنتُ من كبار المصدِّقين لحكاياته. صدَّقته عندما قال إن هناك جبالاً أعلى من منارات مسجد الجامع، وأنَّ البحر أكبر من بركة نخل البويبية ألف مرة. من النادر أن يأتي من يُعارض معلوماته أو يشكِّك في دقتها، فكبار السِّن لا يعترضون، وإنما يُضيئون جوانبها الغامضة بطرح الأسئلة التي تشعل الخامل من خياله. لم يكن متسلطاً يحجرُ على أخيلة الناس. كان يشجِّع الخيال ويدفع الناس لقصِّ ما لديهم من معارف تتصل بالمجهول، إلى أن جاء ذلك اليوم الذي وصل فيه رجلٌ أبيض اللون، طويل القامة، غريب

الشكل، يبدو من النظرة الأولى أنه شاميّ، ولكن لهجته وملابسه لا تؤيدان ذلك.

استمع إلى مجموعة من الحكايات، وشرب «بيبسي» وارتاح للجلسة، وأخيراً أعلن أن أصل الإنسان قرد. كاد «حزام» ينفجر، وكادت تخرج عيون الرجل البالغ الذي يجلس معنا. كنت أعتقد أن «حزام» كان مُستعداً للتعاطي مع المجهول، بغض النظر عن نوعه، ولكن ردَّ فِعله على ما قاله الشامي كان في غاية الغرابة. بعد سنين طويلة، وحتى بعد أن نسيت ورطة القرد، عرفت أن «حزام» لم يغضب من الشامي لأسباب ثقافية أو دينية، ولكن لأسباب شخصية تتعلق بوعيه المنصرف دائماً إلى المجهول. لم يكن يعرف أصلاً أن هناك مشكلة كبرى في العالم حول هذه المقولة، ولا أعتقد أن أحداً في الرياض في تلك الفترة مَن يعرف هذه الحقيقة.

كنتُ من أهمِّ زبائنه، وأخطر المصدِّقين لدعاواه. أعطاني عشرة ريالات، وطلب مني أن أذهب للبطحاء لشراء قرد، ربَّما ليتعرَّف على هذه الحقيقة الجديدة عن كثب. كانت المرة الأولى التي سوف أذهب فيها إلى البطحاء في مُهمة عمل، ولأول مرة أعرف أن القرود تُباع في البطحاء. لم يوضِّح لي نوع الدكاكين التي تبيع هذا النوع من الحيوانات. ولم أسأله؛ لأني كنت في الثالثة عشرة من عمري. كانت البطحاء مكتظة بالبشر، خاصة سوق الكويتية

المسقوف. هناك من يبيع الأغطية والكنابل والجلود والخيام، وهناك من يبيع الساعات، وهناك من يبيع البخور والعطور الهندية والباريسية، وشحّاذون بعاهات متنوّعة يملأون الطرقات، وهناك ناس صُراخهم يملأ الأرجاء، يُحَرّجون على كل شيء من «الزوالي الكاشانية» الفاخرة إلى الملابس الداخلية. ولكني لم أجد معرضاً واحداً يبيع قروداً. لم أيأس، وثقتي في «حزام» كانت كبيرة. سألت أكثر من شخص، وأخيراً قال لي أحد «اليمانيَّة».. وكان يقف خلف مبسط ساعات: تبغى قرود؟ فقلت بفرح: نعم، فقال: كبار ولاّ صغار؟ فقلت «وسط»، قال: «تبغى قرود ذكور ولا إناث؟» قلت كله واحد. تبغى قرود سود وإلا شُقر؟ استمر في طرح أسئلة من هذا النوع، لم أنتبه للسخرية المنطوية فيها. وكنتُ أُجيبه بحماس صاحب المُهمات التبشيرية وبذكاء ما زال في طور النمو، فدلَّني أخيراً على رجل خارج سوق الكويتية من الجهة الشرقية. وعندما وصلت إليه وجدته أسمر اللون، ضخْمَ الجُثة، قبيح المنظر، يجلس على برميل، يتفاحش في القول مع الجميع.

من الواضح أنه معروف عند أهل السوق دون استثناء، وما أن أصبحت أمامه، وبدون أن أسلم، أخرجت العشرة ريالات، وقلت: لو سمحت «أبغى قرد». هبط من البرميل وتقدَّم مِني، وفجأة أمسك بجيبي وفرَّ ثوبي على حلقي، وقبل أن أصل إلى درجة الاختناق رفعني عنْ الأرض حتى أصبح وجهي في مستوى

وجهه، وقال والغضب يملأ عينيه: من الذي أرسلك لي. فقلت «حزام»، فقال مَن هو «حزام»، قلت راعي الدكان. أنزلني على الأرض وقال زاعقاً: «يالله قوة ورِّني إياه».

لم أكن أعرف إلى أي حدٍّ أغضبته.. سار معي من البطحاء إلى حلة الداخلة. أكثر من ساعة ونصف من المشي لم تخفف من حِدة غضبه. طوال الطريق كان يزبد ويرعد، ويخفف على نفسه بأن يعطيني كفاً على وجهي أو على رقبتي، أو يرفسني في بطني. لم يتدخَّل أحد لمدِّ يد العون. أسمع في بعض الأحيان كلمات استجداء يطلقها بعض الناس تعبِّر عن تعاطف من بعيد لبعيد: حرام عليك يا أخي، أو ما لك حق هذا بزر.

حالت جثته الضخمة من تدخّل عملي فعّال. وصلنا إلى دكان «حزام» أُساق كما تُساق الشياه.

كان «حزام» قد صلَّى المغرب، ورشَّ الأرض، وفرش الكنبل، وأخرج المعاميل مستعداً لجولة جديدة من حكايات العوالم المجهولة. تهلل وجهه عندما شاهدني. كان ينتظر مني أن أحضر القرد، فحبكت معه النكتة عندما شاهد الأسمر ضخم الجُثة يسير جنبي، فقال دون تروٍّ: «أنا ما قلت لك تجيب قرد كبير..؟ وضحك»!!. تكدَّست عوامل الغضب. لا أعرف هل كان سيحدث ما حدث لو أن «حزام» لم يطلق نكتته أم أن ما حدث كان حتماً

سيحدث بغض النظر عن العامل الأخير. فالرجل الأسمر عبَر الرياض كلها من البطحاء إلى مشارف «القرينين» و«حلة الداخلة» للانتقام من شيء لم أعرفه أبداً.

ما حدث لحزام كان سوء فهم، غلطة تقنية بسيطة. عندما سألني الأسمر الجالس على البرميل من أرسلك كان من المفروض أن أقول إن الذي أرسلني هو اليماني راعي دكان الساعات، وليس «حزام» المسكين. لكني فهمت السؤال على أساس من أرسلك لشراء القرد، وليس من أرسلك لي.

كان حزام يتكئ على صندوقي بيبسي مصنوعين من خشب صلب. الصناعة في ذلك الزمان كانت قوية ومتينة ومخلصة. التفت الأسمر يمين شمال فلم يجد أفضل من الصندوقين ليبدأ بهما عمله. انتزعهما من تحت «حزام»، فسقط كوع حزام على الأرض. لم يصرخ «حزام» من صدمة كوعه على الأرض، ولكن من تهشم الصندوق الأول على رأسه. لم تستمر صرخة «حزام» الأولى أكثر من ثانية، حيث نزل الصندوق الثاني بتسارع رهيب على رأسه. لم يتهشم الصندوق الثاني كما حصل للأول؛ لأنه نزل على رأس «حزام» من حافته، فاستفاد منه الأسمر لينزل برأس «حزام» ضربة ثالثة. في هذه الضربة دخل رأس حزام داخل الصندوق وكأنه يلبسه عمداً على حلقه. حاول الرجل الأسمر أن ينتزع الصندوق من رقبة

حزام، ولكنه عجز أو فقد صبره، فاضطر أن يستخدم قدميه لإكمال المُهمة.

عندما همد «حزام» وفقد كل اتصال له مع العالم، انقضَّ الرجل الأسمر على الدكان وعاث فيه فساداً، وأخيراً كدَّس بضائع الدكان المبعثرة على جسد حزام الهامد. وشتم كل من له صلة بهذا العالم، وألقى عليَّ بقايا نظرة غاضبة، ورحل هادئاً. أظنه عاد للجلوس على برميله. كل هذا جرى في أقل من عشر دقائق.

نُقل «حزام» إلى المستشفى، وتمَّت إعادة دكانه إلى حجرة في البيت المقتطع منه، واكتفت الحارة بدكان هاشم، فالناس لم يكونوا في حاجة إلى حكايات عن المجهول، ولكنهم في حاجة إلى مَن يلبِّي احتياجاتهم.

* * *

شارع الوزير

القصة ليست في النقل الجماعي، ولكنها حدثت بالصدفة المحضة في «باص» من «باصات» النقل الجماعي، ويمكن أن تحدث في أي مكان يجتمع فيه أخلاط من الناس.

قبل سنوات في عِز الظهر وفي عز الصيف، حانت فرصة ركوب النقل الجماعي، كانت سيارتي معطلة، وكنت حينها في ضيافة صديق أعزب لا يسوق سيارة، وكان ساكناً في طرف شارع الوزير الشمالي، ناحية مسجد العيد. خرجنا لتناول الغداء في واحد من أشهر المطاعم في الرياض يُعرف بـ«سميراميس».

ركبنا النقل الجماعي. وكانت حافلة لطيفة وهادئة، ولولا الحرّ لما ميَّزتُ بينها وبين «باصات» لندن الشهيرة. نزلنا من «الباص»، وتناولنا الغداء، وكعادة الشباب المتحمِّس لرأيه تحوَّل حِوارنا إلى مشادَّة. لا أعرف هل كان الجدل عن الكورة أم كان عن الأدب أم السياسة؟ من يتذكَّر مشادَّة حدثت قبل أكثر من ربع قرن؟!

على كل حال هذا لا قيمة له في قصتنا هذه.. المهم عُدنا إلى

«باص» النقل الجماعي ونحن «متمشكلين مبرطمين» إذا أضفنا الحر وكسل الشبع، باختصار ركبنا الباص في طريق العودة ومزاجنا في غاية السوء، ومعنوياتنا في غاية الانخفاض والتدهور، وكان فراغ الباص، وندرة الحركة في شارع الوزير في ذلك الوقت يشجعاننا على سلوك الكآبة، جلسنا على مقاعد الباص.. لا نملك أي إحساس بما يدور حولنا، كانت كل منافذ الاتصال بالعالم في «عقلينا» مغلقة تماماً.

وبعد محطة أو محطتين ركب رجل فأصبحنا ثلاثة ركاب. لم أُوله أي اهتمام، فهو رجل عادي مُغرق في عاديته، حتى أنك لا تستطيع أن تحدِّد عُمره، هل هو في العشرينيات أم في الثلاثينيات، أم في الأربعينيات؟ من هؤلاء الذين يمنحونك الشعور كأنهم مصمَّمون على مقاس ما حولهم، فمثلاً ملابسه وطريقة تصفيف شنبه لا تعطيك أي انطباع عن علاقة خاصة بطبقة معيّنة، أو بعُمر معين، أو على الأقل بموضة من موضات أيامه، يلبس نِعالاً زبيرية، وغترة بيضاء أحرقها النيل، وفي جيب صدره قلم باركر متوسط الطول... إلخ.. بإمكانك أن تضيف ما تشاء من الأوصاف العادية.

على كل حال هذا الكلام يأتي بعد أكثر من ثلاثين سنة. حينها لم أتأمل فيه جيداً، لم أنظر إلى سِحنته بما فيه الكفاية، فهو كأي إنسان عابر تأخذه بهدوء وإهمال، وتستطيع أن تركِّب عليه ما تريد

من شخصية، فبعد قليل كما جرت العادة في الحياة سيخرج من وجودك إلى الأبد، مجرد رُكام يمكن أن يُنسى بعد ثوانٍ، ولكن الله قيّض لهذا الرجل أن يبقى في ذاكرتي سنوات طويلة.. فليس بالتميُّز يخلد الإنسان. هناك شخصيات تافهة يمكن أن تبقى في ذاكرتك فترات طويلة إذا اقترنت بحادثة أو قضية، وهذه الحادثة من الحوادث التي لا أنساها أبداً فهي بالنسبة لي نوع من صراع المرء مع وجوده وكينونته، خاصة عندما يلقي الإنسان مسؤولية وجوده على الآخرين.

جلس الرجل أمامنا بثلاثة أو أربعة مقاعد، والتفت إلينا مرتين أو ثلاثاً، ثم بادر السائق الفلبيني قائلاً: «ما شاء الله.. فلبيني ويسوق بعير»، قال هذه العبارة والتفت إلينا ليرى ردَّ الفعل، وكما قلت لكم إن مزاجنا لا يحتمل المرح، فلم نُبدِ أيَّ تجاوب، فأطلق هو ضحكة خفيفة لعل عدوى الضحك تسري فينا، وليهيِّئ الجو العام للمرح، فطالما أننا في مركب واحد، فمن الواجب الدخول في جوٍّ عائلي قرر هو أن يصنعه، فعاد مرة أخرى إلى الفلبيني وقال: «يا سوَّاق لا تطامر بالبعير».. طبعاً الفلبيني لا يفهم أي كلمة.. فاستمر في عمله بصمت، ولكن الرجل التفت إلينا ليرى ردَّ الفعل هذه المرة، فلاحظ أننا لم نغيِّر من درجة صمتنا، فاستدار ناحية الفلبيني ربما لأنه شعر بأن نكتته تحتاج إلى بعض التطوير

والتحسين فقال: «أنت يا ألخو ما عندكم في الفلبين بعارين؟»، استمر الفلبيني في عمله، ونحن استمررنا في كآبتنا وصمتنا.

من الواضح أنه شعر بالورطة.. ربما شعر بقليل من القلق، فمثل هذا الكلام يجب أن يُسبِّب الضحك، أو على الأقل المجاملة بالضحك، ولكننا أمعنَّا في الصَّمت دون أن نوحي بأننا كنا نسمعه أصلاً، فتحوَّلت القضية بالنسبة له إلى قضية كرامة لا قضية «عيارة» فحسب، أهم شيء ألا تسفَّه إنساناً ينكِّت، بدأ يتململ في كرسيّه يريد أن يجد لنفسه مخرجاً من ورطة الصمت التي ألقينا به فيها، فأخذ يلتفت مرة إلى السائق الفلبيني ومرة إلينا، أو ربما كان ينتظر رُكاباً جُددا أفضل منا ينقذونه من الصمت، ولكن القدر فوَّت عليه هذه الفرصة، فتحرَّك من كرسيه الذي يقع «وسط» بيننا وبين السائق، واقترب من السائق، وقال في محاولة يبدو أنها الأخيرة لانتزاع الضحكات من أفواهنا: أنت يا سواق البعير لا تسرع، فأحسستُ بأنه بهذه العبارة تحديداً يحاول أن يربط بين وضعه الأساسي كمنكِّت أو عيَّار، وبين المرحلة التالية التي قرَّر أن ينتقل إليها إذا لزم الأمر انتقاماً لكرامته.

استمر الفلبيني في صمته وعمله، فالتفت إلينا التفاتة أخيرة لعلنا «نمحضه» أدنى تجاوب. بدت نظرته كأنها نظرة استجداء لإعطاء وجوده أو كلامه أي أهمية إنسانية، فشعرت في تلك اللحظة بشيء من الذنب تجاه الرجل، فالسائق الفلبيني لا يفهم كلمة واحدة مما

قال، ولا يمكن أن يقدِّم أي ردة فعل تنقذ الرجل، خصوصاً أن الرجل استخدم لهجة مُغرقة في العاميَّة، من الواضح أن هذا الرجل من الناس الذين إذا دخلوا تجمُّعاً مثل مراجعة جوازات أو تزاحم في مطار أو على مدرجات كورة، يبادر بالتعليق والتنكيت.

بشر لا تخلو منهم الأماكن العامة، أراد الرجل أن يقوم بهذا الدور، ولكن سوء طالعه أوقعه مع اثنين متخاصمَين، وليس لدى أي منهما أي استعداد لمشاركة العالم أي مرح طارئ، ولأننا سعوديون فلا يوجد ما يمكن استفزازنا به، وفي نفس الوقت لم يركب راكب آخر يتحوَّل إليه، فلم يجد الرجل أمامه لإنقاذ نفسه من ورطته الوجودية هذه سوى التشبث بالفلبيني، فعلى الأقل بينهما علاقة عمل، وقد اتضح ذلك عندما قال: (أنت يا سواق البعير.. لا تسرع!) كانت بمثابة تحوُّل أكثر منها مجرد تنكيت، أو أنها تحتمل الاتجاهين، فهو لم يطلب سوى ابتسامة تجاوب فقط، أو على الأقل إيماءة صغيرة تدلُّ على أننا نعترف بوجوده في هذا العالم.

بيدَ أننا «صديقي وأنا» استأنفنا الصمت والإهمال والجمود، فهذه العبارة كما سنرى بعد قليل تنطوي على اتجاهين: الاتجاه الأصلي وهو التنكيت، فإذا نفعت كان بها، وإذا لم تنفع فستكون جسراً وسلاحاً سيكون الفلبيني ضحية مأزقه الوجودي، وهذا ما حصل؛ لأنه قال في جُملة ثانية: (أنت يا سوَّاق.. أنت يا سوَّاق لا

تسرع) تلاحظ أنه في هذه العبارة تخلى عن كلمة «بعير».. الجانب الإضحاكي في الموضوع، وركَّز على حكاية السرعة، رغم أن الباص كان يسير بسرعة معقولة جداً، ولكن من الواضح أنه قرر إنقاذ نفسه عبر التضحية بالفلبيني، بدأ يحوِّل كل الكلام والتعليقات التي قالها إلى قضية لها معنى، وهي رسالة يوحي فيها بأنه لم يكن ينكِّت قبل قليل، فهو مُهتم بالسلامة، ولكي يؤكد هذا التطوُّر قفز من مكانه واقترب من الفتحة التي تطلُّ على السائق وقال بلهجة آمرة: (لا تسرع هذا الباص مهوب حلال أبوك)، واستكمل عبارته بعد أن التفت إلينا قائلاً: (هاذولا الأجانب كسروا سيارتنا).

من الواضح هنا أنه قرَّر الاستحواذ علينا من خلال الضرب على وتر الوطنية أو العنصرية إذا أردنا الدقة؛ لأنه قال عبارته السابقة بقوة وثقة، فالمسألة ليست تنكيتاً وإنما هي وطنية علينا أن نبادر بأي ردِّ فعل، فليس من المعقول أن نهمله في هذه القضية الخطيرة.. لقد حانت لحظة إثبات الوجود.. غصب علينا، ولكن هذا الاتجاه الجديد لم يحرِّك فينا ساكناً، وعندما لاحظ أن هذا المستوى من المبادرة لا نفع فيه لتحريك مشاعرنا تجاهه، قفز إلى الشباك وأطل برأسه منه ووضع فمه على أذن الفلبيني وصرخ: أنتم الأجانب ما تخافون الله.. «باص» كلّف الدولة ملايين الريالات، أو جلد مهوب جلدك جرّه على الشوك، عندها شعر الفلبيني بأن الرجل يُهدِّده، فالتفت إليه وقال:

أنت.. إيش فيه مجنون؟!

انتابني إحساس بأن الرجل شعر بقليل من الراحة، فالعالم انتبه له أخيراً، فقال بروح أقل عدوانية وأقل مرارة:

إذا ما سقت شوي شوي.. ترى أكتب فيك «تقرير».. وعندي الإخوان شهود.. والتفت يؤشر علينا، وكأنه يقول لنا إذا لم تحرِّكُكم النكت، وإذا لم تحرِّككم الوطنية فعلى الأقل هنا مشكلة.. ستجدون أنفسكم من الناحية القانونية مُلزمين بها وهي الشهادة.

وقبل أن تتطوَّر الأحداث كان «الباص» قد وصل لمحطتنا التي يجب أن ننزل فيها، ودون أن نلتفت إليه نقّدنا الفلبيني الأجرة وهبطنا من الباص. وفي الدقيقة التي تركناه فيها.. ألقيتُ بنظري على الباص ولم أشاهد إلا مؤخرته، عندها ملأ قلبي حزن شديد، لماذا حرمناه من ابتسامة صغيرة مجانية؟!

* * *

«القرينين»

آخر مرة شاهدت فيها سحلية كانت قبل أكثر من ثلاثين سنة.. لا أعرف لماذا اختفى هذا الكائن الأنيق الرائع، الذي أسهم بقسطٍ كبير في مجريات حياتي.

«السحلية» أو «السحبلة»، كما كُنا نسميها، كائن غريب، حجمها أقل من شِبر، وتتمتع بأناقة في حركاتها والتفاتاتها، كما تتمتع بجسدٍ لامع مُنساب، وتكسوها نظافة دائمة رغم أنها كانت تعيش في الخرائب وشقوق الحيطان في البيوت الطينية القديمة. ربما كانت أنظف كائن سفلي رأيته حتى الآن. كانت تخرج إلينا في الأوقات التي ينام الناس فيها بعد أن تطيح بهم توهُّجات شمس الرياض الحارقة ولا يبقى لمشاهدتها سوى الأطفال الأشقياء.

الشيء الذي يُحيِّرني حتى الآن هو أنني لم أشاهد سحليتين أو قطيعاً من السحالي تسير في نفس الوقت. كانت تلك السحلية التي سأحدثكم عنها دائماً وحيدة، وربما كان هذا هو طبع السحالي، وهو ما أكسبها الأسطورة المتعلقة بها. كان الناس يعتقدون أن السحلية ليست سوى جنيَّة تتجوَّل في هذا الشكل لتسمح لنفسها

بالخروج من العالم السفلي، فالجن لا يظهرون بأشكالهم الحقيقية، وإنما يتمثلون في أشكال كثيرة: قطة، كلب، حية.. إلخ.

كانت والدتي تحذرنا دائماً من إيذائها، فقد كانت في غاية الرُّعب من أن نرتكب حماقة تصيبها بمكروه، فيخفس بنا أهلها إلى أسفل سافلين أو يسقطون فينا ويغرفون عقولنا، ونبدأ بعدها رحلات الجنون.. هناك أشخاص كثيرون في الرياض القديمة يُعزى جنونهم إلى دخول الجن فيهم. ومن أشهرهم شاب كان يقف للناس في سوق الربابين المتفرّع من شارع العطايف وأنت في طريقك جنوباً إلى دخنة (في المكان الذي قامت فيه عمارة ابن كليب قبل هدمها). كان يهش الناس بسيم في يده وسعابيله تقطر.

ولا شك في أن كل عيال الرياض الأولين يعرفون من أقصد. فمع الأسف كان ينادى باسم عائلته ولم يكن ينادى بعبارة معينة حتى أذكرها لكم.. كنا نلعب كورة في بطن البيت ونصخب، ومع ذلك كانت السحلية تتحرَّك بيننا دون وجل. وكان بطن البيت ميدان تجوال السحلية اليومي، ومما زاد إحساسنا بأنها جنية ووثق علاقتها بالعالم السفلي أننا لاحظنا أن لهذه السحلية رحلة يومية ثابتة لا تتبدل.. تبدأ بأن تطلَّ برأسها من خرم يقع تحت قربة الماء، وبعد أن تتأكد من شيء لا نعلمه، تسحب جسدها بكامله وتضعه تحت «سحلة» صغيرة، كانت والدتي تضعها تحت القربة لجمع الماء الساقط من القربة. فتعود بعد قليل لتخرج رأسها من تحت

«السحلة» وتتريث قليلاً لتلقي نظرات قلقة في كل الأنحاء. ثم تتحرَّك ببطء حتى تقف في منتصف بطن البيت تحت الشمس الحارقة مباشرة. وبعد ثوانٍ من التأمل تتحرَّك مرة أخرى بتسارعٍ واضح حتى تصبح في أقصى سُرعتها، وكأنها على موعد مضروب تحت العمود الذي يسند المصباح الشرقي من بيتنا القديم في شارع العطايف. تقف تحته فترة طويلة ربما كانت تلتقي بحبيبها الجني الذي لا نراه.. وبعد نهاية اللقاء تتحرك في اتجاه الوجاور المهجور بالجهة الثانية من بطن البيت.. وتندسُّ تحت الكمار وتختفي. ولا تخرج إلا في اليوم التالي من تحت القربة مرة أخرى. لتبدأ نفس الرحلة اليومية.

لا يستطيع أحد أن يقف في طريقها.. وكل الذي كنا نفعله هو الإصغاء إلى أمي وهي تقول: (بالعوذ الله من شرّكم) إلى آخر الأدعية التي تحاول أن تبعد الجن عن طريق الإنسان.

كائن جميل ومتوحِّد وأنيق، فلو كانت بنات الجن بهذه المواصفات فلا شك أننا جميعاً سنحسد الرجال الذين دخلت فيهم تلك الجنيات. وسنحسد أكثر ذكور الجن.. حتى أنني فكَّرت، منذ أن دخلت مرحلة البلوغ، في الزواج من جنية. ومارست شتى الطرق للوصول إليها. خصوصاً أن وسامتي لم تؤتِ ثمارها مع بنات الإنس بما فيه الكفاية. واستخدمت طرقاً شتى، بدأت بأن اشتريت خاتماً بفص ضخم جداً، فالفصُّ له علاقة بالجن، فكلُّ

المزيورين في الرياض يلبسون خواتم بها فصوص ضخمة.. ولم ينفع هذا. فقرَّرت أن أعبر إلى عالم الجن من خلال الزيران والطيران، فغنيت كافة أشكال السامري (سامري الدواسر، وسامري أهل عنيزة، وسامري أهل...) ولكن النتيجة كانت مخيِّبة للآمال.. فعدلت عن الطريق السلمية، وقرَّرت أن أصل إليهم عبر العنف.. ففكَّرت بأن أدلق الماء الفايح في الحمام. ثم بالتخبيط على العواير، والإكثار من اللعب في صفرة المغرب، على أمل أن يخفسوا بي، فتتاح لي الفرصة لأشرح لشيخهم قضية الحب التي تجتاح قلبي، حتى يتوسَّط ويخطب لي واحدة من بنات عائلاتهم الكريمة.. ولكن ما الذي حدث؟!

بدأت المعركة عندما طلبتُ من والدتي ذات مرة خمسة قروش. إذ بدأ أبو غانم (صاحب الدكان) إنتاج الآيسكريم من آلة آيسكريم كان قد أحضرها. فرفضت طلبي فاجتاحني غضب لا يوصف، وشتمت وبكيت ورفست الأرض (حينها كان عمري إحدى عشرة سنة). وصادف أن كانت السحلية، في تلك اللحظة، في جولتها المعتادة. فلمعت في ذهني فكرة جهنمية، لم أكن اعرف حينها أنها ستكون حاسمة في حياتي. فالتقطت نعال الزنوبة، واتجهت إلى حيث تقف السحلية، وأعلنت بكل حزم وقوة: إذا لم تعطني خمسة قروش سوف أقتل السحلية. أصيبت والدتي بذُعر لم أشاهدها فيه من قبل. ففتحت صراراً في شيلتها وناولتني الخمسة

قروش بكل استسلام ومسكنة، وهي تسمِّي عليَّ وعلى نفسها، وعلى البيت، وربما على العالم أيضاً.

وبعد ثلاثة أيام أو أربعة مرَّ بالبيت بائع هريسة (بسبوسة)، فانطلقت إلى أمي وطلبت منها أربعة قروش. فرفضت بكل حزم. ونهتني عن أكل الهريسة من حيث المبدأ. فطافت في ذهني الفكرة السابقة بعد أن لمحتُ السحلية تسعى، فالتقطتُ نفس الزنوبة السابقة، وجريتُ نحوها وأنا أعلن نفس التهديد السابق. فتلبَّس والدتي نفس الفزع السابق. وهرعت أصابعها إلى شيلتها وحلت صرارها وأنقدتني الأربعة قروش.

عندها استمرأت اللعبة. فالنعال موجودة والسحلية لا تكف عن جولتها الروتينية. ولم أكن أعرف في حينها أني كنت أمارس سياسة تسمَّى (سياسة حافة الهاوية).

لم أسأل نفسي أبداً ترى ماذا سأفعل لو أن أمي رفضت إعطائي الفلوس، وألقت بمصيري إلى هذه السحلية. كنت أراهن على رُعب أمي لا على شجاعتي. فلم يكن إيماني يختلف عن إيمانها.. فطفل في الحادية عشرة لا يمكن أن يعرف المسافة بين السياسة والخرافة. فتماديتُ في الابتزاز، وبدأت مدَّخرات أمي المالية في التناقص. وأحسَّت هي بأنها دخلت في معركة صراع إرادات، فثارت كرامتها. فانتهجت سياسة جديدة لمواجهة موجة الابتزازات..

وللحق كانت فعَّالة ومفيدة لكل أطراف القضية.. كانت تضطر تحت طائلة التهديد أن تمدَّني بالفلوس المطلوبة، ولكن عندما أعود إلى البيت تأخذ نفس السلاح الذي أهدِّد به السحلية (نعال الزنوبة) وتلزخني بها لزخات تلين بها ظهري ورقبتي.

بالطبع أمام هذا الإجراء القوي والحاسم خفَّت كميات التهديد والابتزاز التي أمارسها، ولكنها لم تنقطع. حيث تركتها لحاجاتي القصوى. ويمكن أن أسمِّي هذا اتفاقاً حسب مفهوم المثل الشعبي: «لا يموت الذيب ولا تفنى الغنم». واستمرت الحال على هذا المنوال فترة طويلة حتى جاء ذلك اليوم الكبير الذي صاغ حياتي حتى هذه اللحظة التي أحدِّثكم فيها.

بعد أن قلَّبت الأمر، وأدرته على وجوهه المختلفة، طافت في ذهني مجموعة من المقترحات المختلفة على أساس أن كل شيء لا يتطوَّر يموت. فطالما أن الابتزاز سيؤمِّن لي خمسة قروش مع ضرب لا يمكن تفاديه، فلماذا لا أرفع الأسعار. وبدلاً من طلب خمسة قروش في كل مرة، لماذا لا أطلب ريالاً كاملاً.. كانت فكرة لامعة.. فريال في الأسبوع أفضل من خمسة قروش في الأسبوع، طالما أن الضرب حاصل حاصل.. بعد أن تيقنت من مخاوف أمي التي لا حدود لها.. ولم أكن أعرف أن هذا يعني عودة إلى الابتزاز المرهِق الذي ربما دفع الطرف الآخر إلى اتخاذ إجراء انتحاري.

وفي إحدى القيلولات دخلت البيت وكانت أمي ترقد في أحد المصابيح. ومروحة السقف تطِنُّ فوق رأسها بزعيق يشبه زعيق الغِربان، والشمس تبسط سلطانها على العالم. ارتكنت جنب القربة ونعلتي في قبضتي أتحرَّق شوقاً لخروج السحلية. قرار اتخذ لا رجعة فيه.. فالطمع أصبح سيّد الموقف.. لم أفكر لحظة واحدة بأي خلل في خطتي. فخبرتي في الابتزاز والتمثيل قد تطوَّرت، وإيمان أمي بالسحلية المسكونة بالجن فوق كل الشكوك، ولا يمكن أن يكون مصدراً لتهديد أطماعي.. إذاً أين مصادر الفشل؟!

كانت لعبة متكاملة العناصر.. وفي غمرة هواجسي واحتفالي المبكِّر بالنصر القادم، أطل الجلد الناعم الأنيق من خرمه المعتاد. ودون أن تهتز لي شعرة، ناديت أمي بصرخة قوية مدروسة، فاستيقظت فزعة ولم تنظر إليَّ، وإنما ألقت بنظرها على المحطات الثلاث الرئيسية التي تسير فيها السحلية في جولاتها المعتادة. فشاهدتها تتحرَّك تحت القربة. فعبَّرت عن غضبها بسرعة وألقت بشتائمها المعتادة متداخلة مع بسملات وأدعية.. ويداها مشغولتان بفك صرار شيلتها لتمدَّني بالمقسوم كالعادة.

روتين ارتبطنا به نحن الثلاثة: أمي وأنا والسحلية. روتين يتكوَّن من أربع خطوات ثابتة. تخرج السحلية، ثم أرفع نعال الزنوبة مع عبارات التهديد. فتفك أمي صِرار شيلتها وتنقدني المقسوم. وبعد ساعة أعود لآكل الضرب المعلوم. ولكن هذه المرة تغيَّر جزء كبير

في هذا النظام. لا أظن أن أحداً يلومني أبداً، فمن قرأ التاريخ سيعرف أن هذا ليس قرار طفل، وإنما هو تصرُّف كل الدول والإمبراطوريات إذا قدر الله لها أن تسقط. وهو ما يمكن أن أُسمِّيه الإخلال بتوازن العلاقة.

كانت «السحبلة» في بداية جولتها. وأمامي وقت كافٍ لمزيد من الزمجرة والتهديدات ومتابعة المفاوضات، ولم تستطع والدتي تفهّم هذا التغيّر؛ لأنها كانت متديّنة وكبيرة في السن، ولم تعرف أطماع الجيل الجديد الذي عرف الشاورما والمكرونة، وحلويات القباني، وبدايات الدجاج المشوي والطبيلة. تلك الأمور التي كانت تتطلب مصادر دخل جديدة حتى وإن جاءت عن طريق الابتزاز.

ولكن والدتي في الوقت نفسه من الجيل القديم الصلب. وهذا ما نسيته عند رسم خطة الابتزاز المطوّرة. فتواجهت في لحظة خاطفة من تاريخ البشرية إرادتان لجيلين مختلفين: الأول مُلئ بالإيمان والصلابة، والآخر مُلئ ببواعث الطمع.. فأيّ غلطة في حسابات الصراع بيني وبين أمي ستدفع ثمنها السحلية الأنيقة التي تجول ببراءة دون أن تعرف أن هناك نعال زنوبة ستعصف بحياتها بعد قليل.. ولكن ما هي نتائج هذه الميتة: أبصار ستختطف. وعقول ستغرف. وسعابيل ستذرف. وسيضجُّ العالم السفلي. وستثور مخارب الرياض وحياييله. وستعصف الظلمة بنهار صبي في الحادية عشرة من عمره، كان يمكن أن يكون كاتباً في يوم من الأيام. وربما

«دسوه في مغاريب «عب» شارع الشميسي الجديد». أو خفسوا به. أو تم تسليمه لمندوب الجن في شلقا أو أخذوه على جذع نخلة إلى عمان مباشرة وغيَّبوا شمسه. فالقضية مفتوحة على كل الاحتمالات، والسحلية في تلك اللحظة أصبحت في وسط بطن البيت هدفاً سائغاً لنعال الزنوبة المشرعة. فما أن سمعت أمي كلمة ريال حتى هبَّت من رقدتها وانتصبت على قدميها. فالصراع هذه المرة يتطلب مزيداً من القدرة على المناورة. وربما التدخُّل بالأيدي. ولكني كنتُ أقرب منها للسحلية، وأي خطأ في الحساب من جهة والدتي قد يؤدي إلى مصيبة. فقد كنتُ في غاية الغضب والتوتر.

اختلطت علي المشاعر. فقد أحسستُ في تلك اللحظة فعلا بحجم الصراع. وأنني في حال التراجع عن مطلبي لن أفقد مصدر رزقي الصغير موضع التهديد، وإنما كرامتي أيضاً. فأمامي فرصتان فقط. إما أن تتنازل أمي وتنقدني الريال، أو أقتل السحلية؛ لأن الخيار الثالث كارثة بكل المقاييس، حيث سأخسر كرامتي إلى الأبد. وستموت أمي وهي تحتقرني.

لم أشعر، أثناء المناورات والمفاوضات، بأن كل شيء أصبح على حافة الهاوية. ففي لحظات الضعف التي تطلُّ بين فينةٍ وأخرى، كان الطمع يتدخَّل ليغذيني بروح التحدّي والصمود. ولكنَّ أمي في المقابلِ لم تكن تخلو من أسباب التحدّي وشراسة

المواجهة خصوصاً أنها لم تكن تملك ما يكفي للدخول في مرحلة حرجة من مراحل الابتزاز.

ومن الواضح أنها قررت وضع حدٍّ نهائي لهذه اللعبة. ولم تكن ترغب في التوصُّل إلى اتفاق يرضى عنه طرفا الصراع؛ لأنها قالت بكلِّ حزم وقوة: سم بالرحمن وتعوَّذ من الشيطان، ترى سأتركك هذه المرة يخفسون بك. قالت ذلك وهي تركض إلى باب السوق وهي تنادي: عسى أن يأتي أحد ويساهم في حل هذه القضية. فعرفت أن هناك عناصر أخرى ستدخل في العملية. ولا بد من اتخاذ قرار حاسم الآن. فارتفعت قبضة يدي إلى أعلى نقطة يمكن أن تصل إليها، وعيناي مسلطتان بكل عُنف على السحليّة. فالتمعت عيناها ببراءة الحيوان الذي لا يعرف خرافات البشر. ولا يعرف أطماعهم. ولم تحاول الفرار من مصيرها؛ لأنها تعوَّدت أن تمرَّ من هنا كل يوم فتوثقت العلاقة بيننا وبينها. على أساس أن الإنسان كائن طيِّب لا يؤذي من لا يؤذيه. ولم تعرف أن الذي كان يحميها هو حفنة من الخرافات. لا علاقة لها بالطيبة واحترام الطبيعة واحترام مخلوقات الله. فهوت يدي اليسرى، فجاءت الضربة الأولى نجلاء وحاسمة، فانفجر رأسها، وألحقتها بضربة ثانية وثالثة. كانت آخر علاقة للسحلية بالحياة أن التفَّ جسدها وحاس قبل أن يهمد إلى الأبد.

أما الطبيعة فلم تعبأ أبداً بمشاعري المرعوبة. قرَّرت تسوية الأمر

بينها وبين هذا الكائن الذي غادر الدنيا. انقضت أسراب الذباب المحلقة، ووضعت خراطيمها على كل الأماكن التي مزَّقتها النعال الزنوبة من جسد السحلية الناعم الأنيق.

في تلك اللحظة التي عادت فيها أمي كان الأمر قد تمَّت تسويته نهائياً، وزالت كل أسباب الصراع بيني وبينها. فملف القضية انتقل بالكامل إلى يد مشيخة الجن. وعندما شاهدت أمي السحلية غارقة في أشلائها صُعقت، ولكنها على الفور استعادت سيطرتها على الموقف. وربما كانت تتوقع أن السحلية لا يمكن أن تموت هكذا بنعال زنوبة إذا كانت جنية بالفعل. فهدأت أعصابها ورفعت يدها إلى السماء وذهبت في غيبوبة الدعاء الصادق أن الله يحميني. «رحمها الله وأسكنها جنات النعيم».

الآن بعد سنوات طويلة، كلما تذكَّرت تلك الحادثة، يطوف بي حزن طفيف على كائن مسكين ذهب ضحية قضايا لا يخصُّه منها شيء. أسباب لا يعرفها إلا البشر، أساسها الخرافات والصراعات والابتزاز والطمع.

* * *

لجنة الرحمة!!

لم أصادف في أيِّ يومٍ من أيام حياتي عضواً من أعضاء لجنة الرحمة، أول مرة سمعتُ بلجنة الرحمة عندما تقدَّمت لامتحان الشهادة الابتدائية.

كنا نختصر السنة الدراسية في الأسابيع الأربعة أو الثلاثة التي تسبق أسبوع الامتحان العظيم. نحفظ ما نستطيع أن نحفظه، والباقي مرهون بالغش بتقنيات وأساليب يشرحها لنا من سبقنا إلى هذا الامتحان، وما فاتنا في الجهدين نتركه على الله، ثم على لجنة الرحمة. كانت شغلنا الشاغل. في كل مرة أعود إلى البيت بعد كل امتحان أستلقي على فراشي أفكّر في لجنة الرحمة. فما أجبت عنه من مواد يحتاج إلى دعم هذه اللجنة وعطفها. لا يمكن لطالب أن ينجح وهو لم يحل سوى سؤال واحد، والثاني ملفق من هنا وهناك.. أما السؤال الثالث لم يقترب منه نهائياً نظراً لانتهاء الوقت المخصص للامتحان.

كان موسم الامتحان رغم ما فيه من رُعب ورهبة يعدُّ موسم

المرح والتجمُّعات الشللية، والقصف والمغازل، والتطلع المبهج لأشهر الفراغ الطويلة.

كانت أسابيع الامتحان الثلاثة جميلة ورائعة. وإذا عُدت وحللتها الآن أشعر بأن سبب السعادة رغم رهبة الامتحان يعود إلى أننا نتصرَّف كرجال أحرار. لا يربطنا بالمدرسة إلا ثقتنا بالالتزام، فهي فترة تعدُّ جزءاً من العطلة وجزءاً من الموسم الدراسي.

نذهب إلى المدرسة متى نشاء ونتركها متى نشاء، مرتبطين بمعلمينا بطريقة تختلف عن الطريقة التي كنا نرتبط بها معهم طوال الموسم. ندخل على المدرس في غرفة المدرسين أو في الإدارة، أو نلتقي به في «السيب» أو في الفصل ونسأله بعض الأسئلة بحس المسؤولية الملقاة على عاتقنا. كانت معظم أسئلتنا تدور حول لجنة الرحمة. وكان بعض الأساتذة يعطينا فكرة عن هذه اللجنة، وكيفية عملها، ومتى يحق لهم إعطاؤنا زيادة درجات، وكيف تتم إعادة تصحيح الأجوبة.

معظم الآراء التي يقدِّمها لنا أساتذتنا تخرُّصات. عليَّ أن أشير إلى أن أساتذتنا، الله يذكرهم بالخير، كانوا ينافسوننا في السذاجة وربما في الطفولة. كانوا يجيبون عن أسئلتنا بروح من يريد أن يتفاخر بالمعرفة والاطلاع على مجريات الأمور.

أتذكر الأستاذ عثمان مدرس الفقه والتوحيد. كنا نعدُّه المصدر

الأساسي في كل ما يتعلق بلجنة الرحمة، والمُرشد الأكبر لكل الطلاب. كان أكثر المدرسين حديثاً عن هذه اللجنة، يُحبه الطلاب ويُحبون معلوماته؛ لأنها تتوافق مع الهوى والرغبة. فإذا تحدث عن لجنة الرحمة يتحدث عن شيء أسطوري. لا يصف الأشخاص، ولا يصف كيف يتم انتقاؤهم حتى لا يهبط بهم إلى مستوى البشر. ولكنه يصف الطريقة التي يعملون بها.

نظراً للسرية التي تحاط بها هذه اللجنة، تعدُّ المعلومات التي يُدلي بها الأستاذ عثمان تاريخية بكل المقاييس، في البداية كان يدفعنا إلى سماع حديثه عن لجنة الرحمة ومصيرنا المربوط بهم. ولكن بعد أيام بدأنا ننصت له بروح أخرى. فالغموض الذي يلف طبيعة هذه اللجنة والأشخاص المنتمين إليها يدفع إلى رؤى وأخيلة تجعل هذه اللجنة أكثر من مجرد مجموعة بشر هدفها مساعدة الطلاب وإنجاحهم من باب الرأفة والرحمة. صِرنا ننظر إليهم كأنهم أرواح تأتي من مكان غامض من ملكوت الله الواسع، يعودون إليه متى ما انقضت مهمتهم.

كنا نتمنى أن نرى أياً منهم، ولكن الأستاذ عثمان يحذرنا من هذا الطلب، فهؤلاء يعملون بطريقة سرية تامة إلى درجة أن أوراق الطلبة الفاشلين المحتاجين إلى عطفهم لا تدخل عليهم بالطريقة المعتادة، أي عبر رقم الجلوس السري. كانت هناك لجنة أو

مجموعة تعدُّ لهم الأوراق الفاشلة، وتهيِّئها لهم حتى لا تتأثر قراراتهم بأي معرفة مسبقة عن الطالب المحتاج.

ذات مرَّةٍ سألنا: كم عدد أعضاء اللجنة. سؤال بريء وموضوعي، ولكن الأستاذ عثمان انتفض من الفزع، ثم قفز من على كرسيه الحديد، وأطفأ سيجارته حتى قبل أن يتمَّها، وخرج من غرفة المدرسين. لا نعرف حتى الآن ما الذنب الذي اقترفناه بطرح مثل هذا السؤال.

وفي اليوم التالي كان أكبر همِّنا هو أن نرى الأستاذ عثمان، وأن نطمئن على سلامته. رأيناه في غرفة المدرسين بارماً «خشته» ومنزوياً على نفسه، دخلنا عليه بعد أن قرَّرنا أن نتأسف له، وأن نكفَّ عن الأسئلة الخطيرة. كان الأستاذ عثمان رجلاً طيباً وبسيطاً. فقبل عُذرنا وحذرنا من طرح هذا النوع من الأسئلة؛ لأن هذه اللجنة سرية للغاية، ولا تريد الحكومة أن يعرف أحد عنها أي شيء.

خرجنا من غرفة المدرسين بانطباع أن الأستاذ عثمان واحدٌ من أعضائها. يتخفى في ثوب مدرس عادي.. وكنا ننظر إلى الأستاذ عثمان كرجل بسيط لا يمكن أن تنطوي شخصيته على أي ملمَح أسطوري، نحيف قصير القامة، أشهب البشرة، له وجه مستطيل، تسيطر عليه كمية هائلة من حبوب الجدري، تتزاحم على سطحه

كنجوم في ليل أغبر. لا توفر شخصيته أي شيء يدفع للإعجاب باستثناء طريقته في الحديث، المليئة بعلامات التعجُّب والدهشة. بعد تلك الحادثة ارتبط الأستاذ عثمان في أذهاننا بلجنة الرحمة، وبدأنا نتحدَّث عنه بطريقة مختلفة.

تدريجياً تسرَّب إلى مناطق الغموض المتفشية في وعينا. فأخذنا نخلق منه شخصية أخرى. درسنا تصرُّفاته وحللناها، درسنا مشيته، درسنا إشارات يديه، أعدنا النظر في كل شيء نعرفه عن الأستاذ عثمان. بدأ يتسامى، وأخيراً صار رجلاً أسطورياً. هل كان بالفعل عضواً في لجنة الرحمة؟!

* * *

حوطة خالد

كان يلقب بجنجا. لقب غريب.. أليس كذلك؟ بيدَ أنه لم يكن غريباً في الأيام القديمة. اسمه الحقيقي واحد من تلك الأسماء السائدة (عبد الله، ناصر، محمد، فهد، دحيم)...إلخ، والتي تكاد تخرج من السجلات الحديثة لتحلَّ محلها الأسماء الجديدة اللامعة. لكنك لو ناديت قبل ثلاثين عاماً بأعلى صوتك (يا جنجا يا جنجا) في أي من حارات الرياض القديمة، ابتداء من طلعة الشميسي حتى حي غبيرة، لخرج إليك عشرات الأطفال يلبُّون النداء.

«جنجا» لم يكن الاسم الغريب الوحيد في ذلك الزمان، فهناك عشرات الأسماء الغريبة المنتشرة بين الأطفال واليافعين من عيال الرياض، مثل (الكوش، بوشكاش، الكتالوج، دورو... إلخ). أعرف ما يكفي عن هذه الأسماء، ويمكن أن أعطيك سرداً تفصيلياً عن أصحابها، ولكني لا أعرف عن جنجا الكثير.. سمعته يتردَّد مراراً في الأيام القديمة، ويحمله أكثر من طفل، وأتذكَّر بشكل غائم ومشوّش أنه اسم للاعب كورة في نادي الاتحاد بجدة.. وقد

ارتبط هذا الاسم باسم آخر هو (جربان).. كنا نسمع أن أفضل لاعبَين في العالم هما (جنجا وجربان).

كانت المجر والبرازيل ومصر وجدة شيئاً واحداً بالنسبة لنا. لم نكن نعرف حينها أن جدة جزء من بلدنا، ومصر جزء من أمتنا، والبقية جزء من العالم. كان كل شيء يتداخل في كل شيء، ولا يبقى من العالم سوى حارات الرياض. فكل شيء عدا هذا كان أجنبياً. العالم في وعينا يبدأ من طلعة الشميسي وينتهي عند مقبرة العود. قد يتلكأ قليلاً هنا أو هناك، فيلتفت على دخنة أو الشرقية أو القرى أو حلة القصمان، ولكنه يعود فيستقيم شرقاً ليسقط في مقبرة العود. بعضهم يتمطى ويتباطأ، ويأخذ من العمر ما يكفيه ويزيد. والبعض الآخر يتسارع ليعبر الرياض كلها في عز شبابه، كما حدث لجنجا الذي مات وهو على مشارف العشرين من العمر.

شيء مُحزن أن يموت الإنسان في مطلع أيامه. أليس كذلك؟ ولكن الحياة عبارة عن ملفات تفتح وملفات تغلق. فالأمر ليس بأيدينا؛ لأننا جئنا للحياة بدون اختيارنا وسنرحل عنها أيضاً بدون اختيارنا.

كان عالمنا في الرياض القديمة ممتلئاً بنفسه. يكاد ينأى عن العالم بانغلاقه. ولكن من يهتم؟ لأنك إذا عرفت العالم الآخر ستعيش فيه، وإذا لم تعرفه ستعيش بدونه. وفي كلتا الحالتين

ستستنفد حقك من العيش، وعندما ينتهي دورك الذي قدّر لك سيأتي من يغلق ملفك. موت جنجا المبكر مصداقاً لما أقوله؛ لأن جنجا انتهي دوره الحقيقي في الحياة بعد المباراة الحاسمة التي أقيمت بين فريقي نمور العسيلة وأشبال حوطة خالد. لم تكن تلك الهزيمة هي نهاية لجنجا وحده، وإنما كانت انهياراً لواحدة من أهم حارات الرياض القديمة المعروفة بالعسيلة.

وتقع العسيلة بين شارع الشميسي القديم وشارع الشميسي الجديد، على أنقاض نخل كان يُعرف بالبويبية. ورغم أنها محصورة في منطقة صغيرة جداً إلا أن نفوذها كان يصل «أم سليم» والقرينين والحارات المتصالحة الصغيرة الأخرى، كالبازمي والداخلة. ويكاد نفوذها يمتد حتى يصل العجلية شمالاً، ويلامس السكيك الواقعة بين شارعي العطايف والسويلم.

ويمكن أن نفسّر هذا النفوذ بشيئين الأول موقعها الجغرافي بين حارات الرياض، والثاني استحواذها على مجلب البقر (بورصة الماشية آنذاك). كما أن لها سطوة عاتية إبان الحروب الطاحنة التي كانت تندلع في رمضان بين حارات الرياض. حيث أخضعت على مدى سنوات حارتان من أعتى الحارات آنذاك وهما الشرقية والقرينين.

بعد النهاية المأساوية للمباراة الكبرى التي جرت بين نمور

العسيلة وبين أشبال حوطة خالد، لم أسمع بجنجا إلا بعد سنة أو سنتين عندما بلغني خبر موته.

لكن من هو جنجا هذا حتى يقفز من بين أنقاض السنين الطويلة المنصرمة ويجلس تحت مصباح التاريخ. ويمثل بموته المُحزن موت نظام العلاقات الذي كان سائداً بين حارات الرياض القديمة؟

كان بإمكان «جنجا» أن يقدِّم نفسه لعيال الحارة بأي صورة يريد. فبيتهم يقع بعيداً عن العسيلة، ولم يكن له أي تاريخ شخصي قد يعرقل السمعة المطلوبة. وأعتقد أنه كان يسكن حول سوق دخنة الشهير على «إيدك اليسار» وأنت متجه جنوباً في شارع العطايف.

كان يأتي بصورة شبه يومية لزيارة خالته التي تسكن في قلب العسيلة. وكان قليل الكلام كتوماً ميالاً للصمت المعبر الرجولي. وكانت عيناه جميلتين واسعتين دون مسحة أنثوية. العيون السليمة نادرة فضلاً عن العيون الجميلة. كل العيون تقريباً يجتاحها الغمص فيمحو بريقها. ولكن عيون جنجا كانت صافية تماماً مما جعله يخلق حضوراً قوياً في أي مجلس يتواجد فيه.

لكن رغم عيونه الجميلة لم ينسب «جنجا» أبداً للأولاد الجميلين في تلك الأيام. فتفاصيل وجهه لم تكن تجاري جمال عينيه. شفتاه غليظتان، وجبهته صغيرة، وجلد وجهه يفتقر للنقاء،

مُلئ بالكدمات، ولون بشرته بصفة عامة يميل للسمار الفاتح (أزيرق كما يوصف دائماً. لا أتذكر إلى أي مدى كان طوله يلعب دوراً في قوة حضوره؛ لأنه كان نحيفاً جداً بيد أن نحافته تلك سمة سائدة بين عيال الرياض، فلم تمنع وصفه بالقوة أو انضمامه لزمرة الأقوياء، فكما يقال (كله عصب) وهذا تعبير عن القوة.

لم يكن يهتم بالفتيات الصغيرات اللاتي يتطلعن لوجوده. خصوصاً منيرة التي كانت تشعر بالخدر عندما تتأمل في عينيه وتستقبل الابتسامة الصغيرة التي كان يمحضها بها دون غيرها من الفتيات.

كان هذا أقصى ما يستطيعه مع البنات. ولو درست كل الظروف المحيطة مع هذا التناقض المثير في الوجه لرشحته لأن يكون رئيس عصابة. فوجهه يقع بين الجمال والقبح.. بين القوة والضعف.. بين البياض والسمار، تجتمع كل هذه التناقضات، وتتألف في حركات يديه الرشيقة.

فمنذ الأيام الأولى لوجوده أظهر حِساً قيادياً. وقد شكَّل بسرعة قياسية عصابة تجوب الأسواق خصوصاً «قيصيرة آل وشيقر» وشارع الوزير، وتعتدي على الأطفال الصغار، وفي كل مرة تعود فيها العصابة محمَّلة بالبضائع (دفاتر تشكيلات. جح، فنايل أوميك، خواتم.... إلخ) تعرض للبيع أمام دكان هاشم بأقل الأسعار،

وأحيانا يستدخلها هاشم مقابل صندوق بيبسي. ثم يبدأ جنجا وعصابته لعب «طاش ما طاش» ويباشرون على هذا، وينعمون على ذاك. وعندما يسير جنجا إلى منزل أهله بعد المغرب، تبدأ القصص الأسطورية التي تحيط بشخصيته. من مضاربات وطعن بالسكاكين، واشتهر بأنه «سطاي» يخبط بأي شيء في يده.

لم يكن عيال العسيلة يخافون منه ولكنهم كانوا يتعاملون معه بحذر. فما زال أمامه مشوار طويل حتى يتمكَّن من تسلم قيادة الحارة. كان صغيراً في السِّن بالنسبة للقيادة العامة التي توجّه الحياة في العسيلة، وبالتالي ليس في مقدوره الاستيلاء على الامتيازات التي اكتسبها كثير منهم، من خوضهم المعارك الطاحنة التي كانت تدور رحاها في شهر رمضان من كل عام.

من حُسن حظه أو من سوئه أنه جاء إلى العسيلة في الزمن الذي قضت فيه الحكومة على تلك الحروب. فآخر معركة شهدتها حارات الرياض وقعت قبل سنتين من انضمام جنجا لأهل العسيلة، وإلا لكانت أفضل اختبار لمواهبه القتالية التي وصلت للناس بالتواتر دون اختبار عملي حقيقي لها.

ورغم أنه لم يظهر ميلاً حقيقياً للكورة. إلا أنه عندما جاء للعسيلة كان يحمل لقب «جنجا».. في تلك الفترة انتشرت حُمى الكورة. كانت في الواقع البديل العملي للصراعات التي قضت

عليها الحكومة. ففي العصريات تخلو الحارات و«السكيك» من الأطفال، وتمتلئ بهم «الحيايبل» والنخيل المهجورة.

ومع انقضاء صراعات الفوضى استبدل فتيان ذلك الزمان الحروب بالكورة، فاضطر أن ينضم لفريق نمور العسيلة بشكل أوتوماتيكي ولكنه لا يحضر التمارين بشكل منتظم، حتى أنه لم يُعطَ مركزا مهماً في الفريق، ولم يخُض معه أي مباراة هامة، بل في كثير من الأحيان إذا كان «العقيدة وزغلايب وعبد الهواشم» موجودين، لا يسعه إلا أن يقبل بخانة حارس المرمى. المعروف أن هذه الخانة في تلك الأيام متروكة لصغار السن أو الغشمان أو ضعاف الشخصية. كان يرحِّب بذلك في وجود هؤلاء. وهذا يشير لحدٍّ بعيد إلى أن جنجا يتمتع أيضاً بعقلية بناءة وواقعية، لا يعيبها سوى تقليديته. فرغم صغر سِنه، فهو في الواقع ينتمي للجيل السابق الذي تربى على مفهوم التصارع الفوضوي، بخلاف جيل اليوم الذي نقل الصراع بين الحارات من التقاتل المجاني إلى التقاتل عبر الكورة. هذه بلا شك نقلة حضارية لم يستوعبها «جنجا» مما أدى إلى تدميره وموته في النهاية.

كأن الخلل الحضاري الذي يعاني منه «جنجا» هو نفس الخلل الذي تعاني منه حلة العسيلة نفسها. فالعسيلة لم تستطع أن تتكيَّف مع التغيّرات التي أحدثتها نهاية حروب الحارات الرمضانية، والدليل أن فريق نموز العسيلة من أضعف فرق الحارات فمعظم

بطراني العسيلة والنافذين فيها هم من مخلفات الصراعات القديمة، ليس بينهم لاعب متميّز واحد.

ومن الواضح أن انضمام «جنجا» لأهل العسيلة والتماهي معهم هو رغبة جنجا في حارة تستفيد من مواهبه التي عفى عليها الزمن. والحق يقال إن كثيراً من الحارات ما زالت تخلط بين المفهومَين. ففي كثير من الأحيان هناك لاعبون لا قيمة فنية لهم، بل تكمن قدراتهم في سطوتهم على أهل الحارة التي ينتمون إليها، وبالتالي يصبح دورهم في الملعب مقتصراً على إحداث الشغب والتضارب بالأيدي إذا لزم الأمر. ولكي نكون منصفين نستطيع القول إن التغيّر كان يجري في الحارات بوتيرة أسرع مما يجري عند أهل العسيلة. كأنما العسيلة كانت تلعب دور حارس التقاليد البالية، حيث أعماها سلطان القوة، الموروث الذي تتمتع به، مما سهَّل استيعاب «جنجا»، وسهَّل في نفس الوقت تقويض وجودها.

إنها نظرية غرور القوة الذي أزاح المرونة والقدرة على التكيُّف واحترام التحولات التي تحدث من حولك. إن ما حدث لأهل العسيلة هو ما حدث لاحقاً بالاتحاد السوفيتي..

كيف تسلم «جنجا» قيادة حارة العسيلة والحارات المتحالفة معها، ثم كيف دمَّرها وبالتالي دمَّر النظام الإقليمي الذي يحكم حارات الرياض، كما فعل صدام حسين بالعراق وبالنظام العربي؟

أصبحت العسيلة عُرضة للانقسامات والتفكُّك بعد أن وهنت سكين زغاليب، وداهم شفرتها الصدأ عقب زواجه الذي فرضه عليه والده بالقوة، كما فرض عليه والده أن يذهب معه للمقصب من الصباح حتى المغرب. بعد أن توالت الشكاوى من الآباء وأصحاب الدكاكين، وكثرت زياراته لمراكز الشرطة، إلى أن حذره ضابط المنطقة الخامسة بأن مصير ابنك لن يكون أقل من مصير الثلاثة الذين رأيت رؤوسهم تتدحرج في ساحة الصفاة.

ويبدو أن لحم السواكلي عوَّضه عن لحوم البشر التي كان يغرز فيها سكينه بلا تردُّد أو رحمة. وبذلك فقدت العسيلة واحداً من أهم رجالاتها على مرِّ التاريخ. فذاك الشاب المظفر اجتمعت فيه صفة القائد العسكري مع السياسي المحنَّك. ولا شك في أن التاريخ قدَّم لزغاليب خدمة جليلة عندما أبعده عن مسرح الأحداث في الوقت الذي كانت تجرى فيه التحوُّلات الكبيرة في حارات الرياض كلها. فزغاليب عمر مجده في ظل الصراعات التقليدية، ولن يستطيع مجاراة الجيل الجديد الذي انصرف نحو المجد الجديد، الذي جاءت به الكورة معها.

هكذا زرع فيه والده حب السواطير، وكره الدشارة. وعندما يسأله من يلتقي به كان يقول بدون أي أسف على الأيام الخوالي: خلاص لله الحمد والشكر تزوَّجنا وذقنا طعم الحلال. وكان

الأطفال واليافعون الذين كان زغاليب يُرهبهم قد كبروا وأصبحوا في عُهدة أنفسهم أو عهدة سربوت آخر.

أما «العقيدة»، وهو الرجل الثاني في الصيت، فلم يكن على أي درجة من الحِس القيادي. ليس لديه من موهبة إلا قدرته على القلطة وسف الحصى. ولا شك في أنه أسال دماء غزيرة من جباه خلق الله عندما كانت تستعر حروب رمضان الشرسة أو عندما يمرُّ عابر سبيل لا يُعجبه. لكن أهدافه كانت ضيقة جداً لا تتعدى النهب والسطو والمشاغبة، وفوق هذا كان طيِّب القلب. فأصبح قوة عمياء لا فائدة فيها دون إدارة خارجية. كان يمكن أن يستدرج إلى تنازلات عبر العواطف الإنسانية. من المعروف أن أهل العسيلة فقدوا كثيراً من المكاسب بسبب طيبته وسهولة السيطرة عليه عاطفياً. كان مُحارباً فذا لا أكثر ولا أقل. لم يكن يعرف أسلوب الخديعة والركل من تحت الطاولة. وفوق هذا كله كان يعاني من نقطة ضعف لا يمكن البرء منها متمثلة في والدته التي يكنُّ لها حباً عظيماً في كل الأوقات ما عدا الدقائق المتبقية على صلاة الفجر وهي تنتظره على الزلفة؟ كان يرفسها برجله دون وعي، ويدخل البيت وهي تصرخ وتركض خلفه وتردِّد آلاف المرات: «يا وليدي وينك فيه اللي هالحين؟ يا وليدي خف الله في نفسك»، فيرفسها مرة أخرى، ويلقي بنفسه على الفراش.

وفي الصباح عندما تعاتبه كان يجهش بالبكاء، ويعدُها بألا

يُكرِّرها مرة أخرى، فتأخذ رأسه وتضعه في حِجرها وتبكي معه، وتزوِّده بجرعة الحنان اليومية. ولكنه يعود في فجر اليوم التالي كما كان وأشد، ويرفسها وهو يزبد ويرعد. يخرج إلى العالم في صباح اليوم التالي بطاقة من بؤسه وفقره ويتمه.

كان كثير من خصومه يعرفون نقطة ضعفه أمام أمه فيلجأون إليها بالشكوى، فتنتزع منه كل ما يريده الآخرون. كانت والدته عجوزاً عمياء، يعيش معها في نفس البيت دون أب، ولا يتذكر أحد متى مات أبوه. فتربَّى معظم وقته في الشارع، كما عاشت هي معظم حياتها وهي تنتظره على زلفة الباب تنوح وتسأل عنه كل من يمرُّ من أمامها. حتى أن العالم في ذلك اليوم البعيد الذي ألقت الشرطة القبض عليه على إثر طعنة سكين كانت تتجنب المرور من السكة التي كان يسكن فيها. لا يريد أحد أن يتحمَّل مسؤولية إبلاغها بخبر القبض على ابنها ويكون سبباً في موتها.

كان «العقيدة» قوياً في المضاربات واهناً في القيادة. وفي الفترة الأخيرة عندما خرج «زغاليب» من غرفة القيادة اضطر «العقيدة» لأن ينصاع لأوامر «جنجا» غير المباشرة. وقد بدأ بالفعل ينضم للعمل لحساب «جنجا» الذي كان في حاجة لكبار السن، وأصحاب الصيت الذائع حتى تكتسب عصابته قيمة تاريخية، فلا تبدو أمام الأجيال الشابة الصاعدة مجرد عصابة نبتت من فراغ.

كان «جنجا» يعطي «العقيدة» حقوق زعيم غير متوّج، كما لو أنه يمحضه احتراماً مبالغاً فيه حتى يضمن ولاءه، وليزرع الانطباع عند الآخرين بأنه يحترمه؛ لأنه أكبر منه، لا لأنه أقوى منه.

بدأ «جنجا» يتجه لقيادة أهل العسيلة بتكنيك سياسي غير مسبوق، حيث بدأ يتمرَّس في القيادة، وإصدار الأوامر على حساب الآخرين. فمعظم أوامره كانت لمصلحة الكبار مخلوطة بمصلحته. فإذا جاء «زغاليب» في زيارة خاطفة وتحت إلحاح الحنين للمجد الآفل لدكان هاشم، كان «جنجا» يأمر الذي جنبه ليهبَّ ويقدِّم لزغاليب قارورة بيبسي. وكان «زغاليب» يشكر «جنجا» على هذه الخدمة التي قدَّمها في الواقع شخص غيره. كان يصد ر الأوامر على الضعفاء ليرضي بها الأقوياء.

طور هذا النوع من الأوامر في حيلة سياسية بارعة يحقق مكسبين: فهو يودِّع الأقوياء بالاحترام اللائق، حتى إذا غاب هؤلاء الأقوياء عن المسرح نهائياً يكون الجميع قد تعوَّدوا على تلقى الأوامر منه. عندما يشاهد «العقيدة» مقبلاً من بعيد يأمر بإيقاف اللعب، ويأخذ الكورة بين يديه، ويطلب من أقرب واحد أن يذهب إلى «العقيدة» ويسأله إذا كان يريد أن يلعب، وهو يعرف تمام المعرفة أن «العقيدة» سيلعب وفي خانته المعتادة، فالتكميلة بين يديه. وبعد أن ينضم «العقيدة» للعب يأمر «جنجا» الحكم باستئناف اللعب، بحيث يسبق «العقيدة» على هذا الأمر. وإذا جاء لاعب

متأخراً قليلاً، كان يقيس موقف «العقيدة» منه فيوقف اللعب، ويسمح له بالنزول والمشاركة أو يتركه حتى الهاف تايم.

بدأ يتعمَّد تقديم الحماية الكاملة لأزلام «زغاليب» حتى غاب «زغاليب» عن المسرح، فاستدخلهم تحت إمرته. خصوصاً أن بينهم أقوياء أغبياء هو في حاجة قصوى لخدماتهم الجليلة. وهكذا بدأت تتحوَّل قيادة العسيلة لجنجا بالتدريج، ولكن هذا لا يكفي، فالسياسة تحتاج إلى قوة تسندها. حتى يؤكد بها عملياً أحقيته في قيادة العسيلة والحارات المتحالفة معها. لم يتأخر ذلك الوقت كثيراً، حيث جاءت الضربة الكبرى في إحدى القيلولات التي كان فيها تراب الأرض يلتهب تحت الأقدام العارية.

لا يوجد ما يُغري الأطفال واليافعين بالبقاء في البيت. فالبيت والشارع متساويان في كل شيء تقريباً، وحتى أن قرر الطفل البقاء في البيت فلن تسمح له أمه بذلك (قم رح العب في السوق وأنا أمك). فتجد في كل حارات الرياض أكواماً من الأطفال والمراهقين يتجمعون أمام دكان أو تحت عاير أو بلكونة مسجد في عز الظهر في عز القايلة ترتسم على وجوههم ونحورهم وصدورهم العارية الخرائط البيضاء، التي ترسم أخاديد ومجاري العرق الجاف، وعندما ينهض الواحد منهم سترى بقعة تراب على ثوبه.

بعض الثياب لا يمكن أن تعرف لونها الأصلي من لطخات

الدهن التي تتركها الكعابة المتكوِّمة في الجيوب ولمعان الأكمام من مسح المخاط، وبعضها الآخر يحتاج إلى تخمين حتى تعرف أن ما يلبسه كان في الأصل ثوباً. بعضهم حاسر الرأس والبعض الآخر بغترة ملفوفة على الرأس بما يُعرف ببنت البكار. هذه الأكوام من الأطفال هي منجم الذهب لتأمين الرجال المناسبين لكل أغراض الزعامات من أمثال «جنجا» و«زغاليب». فكل مجموعة أطفال لهم رئيس متوَّج أو غير متوَّج يتحكَّم في المصائر. تشكِّل ميليشيا وحواجز عبور لكل المارة. من الصعب في ذلك الزمان عبور الحارات بمفردك.

كان «جنجا» في حاجة ماسَّة إلى مأثرة واحدة فقط حتى يتم تتويجه زعيماً على العسيلة والحارات المتحالفة معها. فالمطلوب ليس عراكاً تقليدياً أو سرقة دفاتر أو جح.

كأنه كان موعوداً مع حظه، فمن الصعب جداً أن يتحرَّك أحد في القايلة. لا يوجد في هذا الوقت خارج المنزل إلا الأطفال. ولكن الحظ ساق اليماني ليعبر من أمام كومة ضخمة من الأطفال والمراهقين يتوسّطهم «جنجا».

قام طفل بذيء ربما كان يستعد للزعامة في يوم من الأيام، وأخذ حصاة صغيرة وسفها على اليماني، ولكن اليماني يعرف الفخ، فلم يستجب ومضى في طريقه. فصرخ اثنان أو ثلاثة أطفال:

(الزيدي محفرة طين طارت به الشياطين). عجّل اليماني من خطوه، ولكنه لم يركض حتى لا يشجّعهم على الاعتداء. حاول أن يوازن بين الواقع وبين كرامته، فهو لا يريد أن يلتحم معهم، وفي الوقت نفسه لا يريد أن يظهر أي ضعف أو تخاذل، ولكن حصاة طائشة ضربته في كوعه، فكاد طنين العظم أن يعميه حتى أن يده فترت للحظة من شدة الضربة، فالتفت وقال بغضب: مين الكلب إللي رمى بالحجر؟ رد الجميع بضحكات مكتومة. فقد بدأت اللعبة المطلوبة. تركوه ليعطيهم ظهره مرة أخرى، ولكنه عرف أنه وقع في الفخ وفي الوقت الذي كان يستدير فيه ارتطمت حصاة غادرة بقمة رأسه فأعماه الألم. فالتفت يبحث عن أن أي شخص يبرّد كبده فيه. فهرب جميع الحاضرين (الكبار قبل الصغار) ما عدا «جنجا»، وكما نعرف فجنجا واقعي يقيس الأمور. ولكن اليماني مجروح، ومن الواضح أنه أحمق أيضاً. ولكن هذا لا يغيِّر من الأمر شيئاً.

على «جنجا» أن يجد مخرجاً من هذه الورطة الكبيرة، فاليماني طويل ومربوع، وأكيد مدمن على الحلبة. فمن الواضح أنه سوف يحطم «جنجا» النحيف. وفي اللحظة التي اقترب فيها اليماني كان أحد الأطفال قد رمى حصاة فأصابته في جبهته. لم تفلقه ولكنها أثارته أكثر، وأصبح أكثر توحُّشاً وغضباً.

أصبح «جنجا» في وضع أكثر حرجاً، إما أن يدافع عن لقبه في هذه الفرصة أو أن يسقط من أعين الأطفال كافة. نعم يُريد فرصة.

ولكن ليست هذه الفرصة. خصوصاً أنه لا يحمل سكيناً هذه المرة. فإذا خسر فستكون النتائج مدمِّرة لأحلامه وطموحاته، وسيفقد كل الامتيازات التي حصل عليها على مدى السنين التي أمضاها بين أهل العسيلة.

اضطر أن ينتصب بكامل قامته، وحاول تسوية الأمر مع اليماني بالطرق السلمية، وفي حدود الشرعية الدولية. ولكن الحصاة الأخيرة بدَّدت روح السلم في داخل اليماني. لابد من الانتقام. فالموقف أصبح في غاية الخطورة. فكلا الخِصمين لديه أسبابه التي تمنعه من الانسحاب، أو على الأقل تهدئة الوضع عبر التنازلات المتبادلة، وحفظ ماء الوجه. دخل اليماني في سورة غضب واندفاع، ولعن «أبو الذي رماه بالحجارة» وهو طفل يتبع لسلطة «جنجا» مباشرة، فاضطر «جنجا» أن يرد بحزم، ولكن بدون استفزاز. ولكن اليماني عاد وشتم الذي رماه وشتم «جنجا» نفسه، فرفع «جنجا» صوته هذه المرة بصورة آمرة ولكنها أيضاً تشجِّع على اللجوء إلى السلم.

كان اليماني في حاجةٍ لشخص ليلتحم معه. فاندفع تجاه «جنجا» فزاغ «جنجا» عن طريق اليماني، وجاء ابتعاده هذا في صالحه، فالتحما، ومن حسن حظ «جنجا» أن الالتحام وقع على «دحديرا». وقف اليماني دون تبصّر في جانبها الواطئ. وفي لحظة الالتحام زلت قدم اليماني، وفقد توازنه، فتشجَّع «جنجا» بضغوط

من أتباعه والمتفرجين وقرر أن يقطف الفرصة التاريخية. ففي حال هزيمة يماني، فهذا يعني نصراً تاريخياً يبقى إلى الأبد. ويفتح آفاقاً للبطولة والبطارة لا حدود لها، وسوف يتوّج قائداً لسرابيت العسيلة في فترة التحوُّلات العظيمة، التي لا يعرف أحد إلى متى ستطول.

عصف «جنجا» بمساعدة «الدحديرا» بجسد اليماني، وألقاه على الأرض، ثم ركله برجله. سمعنا صرخة اليماني المكتومة، مما زاد من توتر «جنجا». لا أحد يعرف هل توتره هذا ناشئ عن نشوة النصر أم الخوف من هزيمة متوقعة. وكلتا الحالتين تستحق التوتر، ولكنه أظهر مزيداً من القوة. فركل اليماني مرة أخرى على بطنه، فالتوى اليماني وانكمش وأصبح موقف اليماني دفاعياً محضاً.

في مضاربات الأيام الماضية لا يتوقف القتال باستسلام أحد الطرفين. فلابد من حضور فاعل خير يفكُّ بين المتضاربين. فمن العيب أن ينسحب أيٌّ من الطرفين مهما كانت النتائج. لذا اضطر اليماني لمواصلة القتال على أمل أن تسفر اللحظات القادمة عن فاعل خير. وفي الوقت نفسه رغم النصر السريع والرخيص الذي حققه «جنجا» ما زالت المعركة في بدايتها و«جنجا» رغم جهله المُطبَق إلا أنه ذكي يقيس الأمور. فالمعركة تسير في صالحه لأسباب طبوغرافية. فالنتيجة النهائية لم تُحسم بعد. و«جنجا» كان في شوقٍ عظيمٍ هو أيْضاً لمن يتدخَّل في هذا الوقت بالذات ويوقف

القتال. فاليماني لم يبدأ أصلاً بالقتال، وتلقى عدداً من الضربات وسقط على الأرض، مما سوف يُسجَّل لمصلحة «جنجا» وسمعته وأسهمه. فهو يريد أن يكتفي بالجزء الذي حققه. ولكن لم يظهر أحد من البالغين. كان الوقت منتصف النهار وفي عِز القايلة وفي الإجازة الصيفية، وأهل الرياض جميعاً لا نفع فيهم في هذا الوقت فهم مخدَّرون بالرز والجح واللبن.

فمن الواضح أن اليماني شعُر بأن أمامه خيارَين: إما أن يُعيد ترتيب المعركة ويُعيد تقييم الموقف، ويتقدَّم بإستراتيجية جديدة، أو أن يسمح لجنجا بسحقه. ولكن من حسن حظ «جنجا» أن اليماني يدافع عن جسده وعلى أرض غريبة بخلاف «جنجا» الذي يُدافع عن جسده وعن لقبه ومكانته في الحارة. وبعد تعاركٍ بالأيدي بهدف السيطرة على حلق كل منهما، وضع «جنجا» ثقلاً كبيراً على هذا التكنيك القتالي مما سبَّب له بعض المشاكل، وأهمها أنه أتاح لجسد اليماني أن يرتاح قليلاً، وأن تهدأ آلامه، كما أنها أعطت اليماني مؤشراً على أن خِصمه ليس عنيفاً كما يجب. فدخلت المعركة مرحلة يمكن أن نقول عنها مرحلة التكافؤ. وهذا ليس في مصلحة «جنجا» بحساب عناصر القوة عند الطرفين، فاليماني أقوى من «جنجا»، والدليل أنه تحمَّل عدداً من الرفسات، وسقوطَين غير مُبرَّرَين، فإذا استمرت المعركة في هذا الاتجاه فهذا يعني أن «جنجا» سيواجه موقفاً صعباً. فكان عليه أن يطوِّر تقنيات جديدة

لمواجهة الاحتمالات الجديدة، وعليه أن يقدِّم تضحيات جديدة. فالمعركة معركته الحقيقية الأولى، وقد تكون الأخيرة.

أخيراً اتخذ القرار، حيث تخلى عن وضع النصر المؤقت الذي يتمتع به، والذي يُنذر بانقلاب في أي لحظة، وسمح لخصمه بالنهوض، وجرى هو إلى كومة اللبن المرصوف أمام دكان هاشم، والتقط واحدة، وجرى مرة أخرى ناحية اليماني، في اللحظات التي سيصل فيها اليماني إلى كامل توازنه، ألقى «جنجا» باللبنة على رأسه. فتهدَّمت على قمة الرأس، وتناثرت على جسده. صرخ اليماني صرخة أخرجت المحتل من بيته، وهاشم من دكانه. وشاهدنا الدم يتصبَّب ويغطي قميص اليماني.

كانت ضربة مُعبِّرة عن نصرٍ عظيمٍ بأقل التكاليف. فتدخَّل هاشم، وتدخل المحتل، وصاحا في المتحاربَين (تعوَّذا من الشيطان) ورغم أن اليماني لم يُصب بأذى حقيقي، ولكن انفجار الدم ثبَّت في قلبه روح الهزيمة. فتدخُّل أهل الخير في هذا الوقت ألغى مبرر الدفاع المُميت الذي كان سينشأ بعد هذه الضربة. ولكنّ هذا مجرد تخمينات وتحليلات. فالمحصِّلة النهائية أن «جنجا» سحق اليماني تماماً. فلم يسجِّل خصمه أي نقطة تستحق الذكر مما رشَّحه بطلاً للعسيلة بلا منازع، فلو صادف مكان اللبنة حجراً صلباً فلا أظن أن «جنجا» كان سيتردد في استخدامه؛ لأنه كما ذكرنا يسجِّل موقفاً تاريخياً لا يمكن التضحية به مهما كانت النتائج.

صرخ هاشم من جهة، والمحتل من جهة ثانية: توقَّفا. فتوقف «جنجا» عن الصراع، واليماني لم يكن في حاجة لتلك الصرخة؛ لأنه لاذ بالفرار، وليؤكد «جنجا» موقفه الجديد لحق باليماني بقوة، ولكن بتباطأ وهو يصرخ: (إذا شفتك في الحارة مرة أخرى قصيت رقبتك).. راح يُكررها حتى بعد أن غاب اليماني عن الأنظار، فهي في الواقع رسالة موجَّهة لكل الأطراف، وليست لليماني وحده. أو أنها البيان رقم واحد لاستيلاء «جنجا» على قيادة العسيلة.

انتشر خبر هذه المعركة كالنار في الهشيم فعرفت العسيلة والحارات المتحالفة في وقت قياسي. فتأكدت زعامة «جنجا» وتحوَّلت كل امتيازات الأقوياء له.. ولكن الزعامة ليست في الوصول إليها، وإنما في الحفاظ عليها.

ما الذي سيحلُّ بجنجا في المباراة الكبرى والتاريخية التي ستجرى وقائعها على ملعب نمور النصر بين فريقي نمور العسيلة وأشبال حوطة خالد؟

بعد حادثة اليماني أصبح «جنجا» زعيماً متوَّجاً يقود الحارة، ويُخيف الحارات الأخرى، ولكن للحق لم يستغل «جنجا» وضعه الجديد الذي حصل عليه بجدارة، بل سار بين أطفال الحارة بتواضع جَم يثير الاحترام والإعجاب، كان ينتظر التنازلات والأريحية من الآخرين التي تعطى دائماً للأقوياء، فكل شيء يريده

يطلبه بتواضع، لا أحد يستطيع أن يقول لا، ولكن «البروبوجاندا» لا يتوقف تأثيرها على الناس، بل تؤثر في كثير من الأحيان على أصحابها، ذاع صيت «جنجا» في كل الحارات، وأصبح بطلاً أسطورياً، وتناقل الناس كثيراً من الأحداث الملفقة التي تنسب له، ولم يكن ينفيها أو يثبتها؛ لأنه لم يسأل عنها أصلاً، فكل من يسمعها لابد أن يصدِّقها، التحم «جنجا» مع خصوم لا حصر لهم، وخرج من كل المعارك منتصراً.

بقراءة متأنية لهذه الانتصارات سنشاهد أن هناك عاملين ساعدا «جنجا» على النصر: الأول سُمعته في البطارة خاصة تدميره لليماني. فما أن يلتحم معه أحد حتى يذعن بسرعة ويستسلم، والثاني يأتي من حُسن إدارته معاركه، فلو دققنا لوجدنا أن جنجا كان يختار خصومه، ويختار توقيت المعركة، فخرج من نصر إلى نصر، فتعززت مكانته، ولكن هناك خللاً ثقافياً ليس في «جنجا» ولكن في زمان «جنجا».. فالقوة في ذلك الزمان ليس لها اختصاص مع الأسف، فالناس يطالبون الأبطال بالانتصار في كل أنواع المعارك (لذا لا تدوم البطولة فترة طويلة) ويبدو أن هذه الظاهرة عربية، فالأبطال العرب دائماً يذهبون ضحية أوهامهم التي يعمرها لهم إعلامهم.

إذ طالما أن «جنجا» قوي وسحق اليماني، فلابد أن يفوز في المعارك اليدوية، ولابد أن يكون أحسن لاعب كورة أيضاً، فقفز

من خانة حارس مرمى إلى خانة (سنترفورود) رأس حربة ليسجِّل الأهداف، فحارس المرمى كما أشرنا من قبل يعني صغار السن أو ضعاف الشخصية أو الغشمان في اللعب، وهو مركز لا يقبله أحد، بينما رأس الحربة، كما لا يخفى عليكم، هو أهم المراكز، لم يكن «جنجا» يتميَّز بأي ميزة تؤهله لأن يتفوَّق في كرة القدم.. لا سرعة ولا مرونة ولا قدرة على المراوغة، فلا يملك سوى ميزتين هما: العنف والهيبة فقط.

بدأت الرياض الاستعداد للمباراة الحاسمة في وقتٍ مبكر، فلأول مرة سيلعب فريق أشبال حوطة خالد (الأقرب للهلال) مع فريق (نمور العسيلة) الذي يُعدُّ إلى حدٍّ ما قريباً من الأهلي،، ويمكن أن تعرف الانتماءات من تسميات اللاعبين الصغار في فرق الحواري، ففي فريق نمور العسيلة تكثر التسميات المأخوذة من أفراد لاعبي الأهلي (علي حمزة، زيد بن مطرف، النقادي... الخ)، بينما فريق حوطة خالد تكثر فيه التسميات المأخوذة عن لاعبي الهلال (صالح أمان، رجب خميس، مبارك عبد الكريم... إلخ).

كانت صراعات الكورة في تلك الأيام تدور على خلفية الصراع الدائر بين الهلال والأهلي، فحتى لو لم ينتسب أي من الفريقين بشكل صريح لأي من الفريقين الكبيرين، فالمناطق التي تأتي منها الفرق تحدِّد الولاءات، فأهل العسيلة وفقاً لذلك يعتبرون مع فريق الأهلي، بينما أهل حوطة خالد يعتبرون دون تردّد موالين للهلال.

بعد مفاوضات طويلة وشاقة اتفق نمور العسيلة مع أشبال حوطة خالد على كافة المسائل الإدارية والقانونية التي ستنظم لقاء الفريقين، ووافق نمور العسيلة أن تكون المباراة على أرض أشبال النصر الواقعة بجانب نادي النصر المقابل لمستوصف الفوطة تحت عمارة الزهرة مباشرة، والواقع على الطرف الشمالي لشارع السويلم، وهذا الموقع يفرض نفسه بصفته يقع في وسط دائرة ملاعب متعددة، وفي الوقت نفسه يقع في الوسط بين مناطق نفوذ أهل العسيلة وبين مناطق نفوذ حوطة خالد من الناحية النظرية، ولكن من الناحية العملية هو أقرب إلى أشبال حوطة خالد، ولكن الغرور الذي كان يُعمي عيون أهل العسيلة مضافاً إلى ذلك أن قيادات أهل العسيلة ينتمون عملياً لجيل ما قبل الكورة: جيل صراعات الفوضى، الأمر الذي جعل أهل العسيلة لا يتأملون في إستراتيجية المكان الذي سوف يخوضون فيه أهم وأخطر مبارياتهم.

توهَّموا أن بإمكانهم سحق خصومهم على أي أرض، وتحت أي سماء، لاسيما بعد أن آلت القيادة في ذلك الوقت إلى «جنجا»، فهو من ناحية العمر ينتمي للجيل الذي سيخوض المباراة، بينما ثقافياً وعقلياً ينتمي للجيل السابق المنقرض، فوافق دون تدبُّر على هذا الموقع، على أمل أن يمدَّ نفوذه بعد هذه المباراة إلى مناطق لم يسبق لأهل العسيلة الوصول إليها.

قبل يوم من المباراة الكبرى والاستعدادات في أوجّها، جاء من

يُخبر أهل حوطة خالد برغبة أهل العسيلة في تأجيل موعد المباراة أسبوعاً، بعد أن ألقت الشرطة القبض على ثلاثة من أبرز لاعبي العسيلة بتهمة سرقة دبّاب، وضرب صاحبه وألقاه في «عب» شارع الشميسي الجديد مُضرجاً في دمائه، كادت الحادثة أن تكون سبباً في تأجيل مباراة الحسم إلى أجل غير مُسمَّى، ولكن من حُسن الحظ أن المغدور لم يستطع أن يتعرَّف إلا على واحد من الثلاثة، فأفرجت الشرطة عن الاثنين الباقيين، وأقر موعد المباراة بعد أسبوع؛ لأن الثالث الذي تمَّ التحفظ عليه له سوابق لا حصر لها، فقد كان بطبعه جباناً وغادراً يخلو من روح الفروسية، التي كان يتمتع بها معظم «سرابيت» الرياض في ذلك الحين، فقد تجمَّعت عليه مجموعة من التهم الوضيعة، فعرف أهل العسيلة أن لاعبهم لن يخرج هذه المرة من السجن إلا بعد سنوات طويلة سوف يتعفن فيها، فسوابقه المتنوِّعة يمكن أن تؤمِّن له ما لا يقل عن عشرين سنة سجناً، فصرفت إدارة الفريق النظر عن خدماته خاصة أن رئيس الفريق أعاد تشكيل طاقمه بما يضمن لجنجا أن يكون «سنتر فورود» (رأس حربة)، مما يعني تأخر «القعيس» ليلعب في الوسط، وعلى «العقدة» في هذه الحالة أن ينتقل إلى خانة (باك يمين)، وهكذا تحرَّكت مراكز الفريق، وأغلقت خانة الشقي، وأصبح الفريق جاهزاً لمباراة الحسم الكبرى.

وبالفعل كانت تلك المباراة من أعظم المباريات التي أقيمت في

الرياض القديمة، فقد تقاطرت الجماهير من كل فجٍّ في مدينة الرياض، حتى أنه شوهد جماهير من عيال غبيرة، وعيال شارع الريل، وعيال الباطن، وربَّما من بقية الأقاليم المحيطة بمدينة الرياض.

غصَّت حواف الملعب، وتسلق بعض الجمهور السيارات الواقفة، ووقف آخرون على سور المستوصف، ولأول مرة نشاهد سكان عمارة الزهرة «الأشوام» رجالاً ونساء يحتشدون في البلكونات.

وصل فريق نمور العسيلة في «ونيت»، واضطر أن يدخل إلى منتصف الملعب حتى يُسمح للاعبين بنزول الملعب دون أن يُصاب أحد بأذى. وفي تلك اللحظة بدأت الجماهير في إطلاق الصيحات، ولكن الصرخة الكبرى انفجرت عندما أطلَّ رأس «جنجا» من تحت الشراع. نزلت رجله الأولى على رفرف الونيت، ثم انطلقت الثانية لتلامس الأرض. كان حاسر الرأس، فظهرت جمجمته المستديرة مع غرة تقف على مقدِّمتها كالعُرف تطل بتكاسلٍ على الجبهة، فبدا جميلاً ومهيباً.

وبعد دقائق هرول الفريقان حول أرض الملعب بشكل منظم، وهذه واحدة من بركات النظام الجديد. لا يمكن تصوُّر الإثارة التي بلغتها الجماهير في تلك اللحظة. فقد تداخلت الصيحات مع

الصفافير والزعيق والأناشيد، ومع اللغط والشتائم، فأحدثت زوبعة عاتية، فأصبح اللاعبون في غاية الإثارة.

وبعد أن انتهت جولة التحية تبعثروا في أرجاء الملعب في عملية إحماء. يتقافزون هنا وهناك، في الوقت الذي كانت تُجرى فيه المفاوضات بين إداريي الفريقين لتحديد شروط اللعب التقنية: موعد «الهاف تايم»، عدد اللاعبين الذين يجوز تغييرهم، عدد الكورنرات التي تُحسب هدفاً.

لا يشترك «جنجا» في مثل هذه المفاوضات، فهي متروكة لرئيس الفريق (السياسيين)، فدور «جنجا» يتحدَّد عند نشوب المعارك. كان يلبس حذاء رياضياً كان يُعرف بـ«الفلو»، معززاً في قاعه بمسامير حادة.

الشيء الذي يجب أن نعرفه أن الجماهير في كل مكان تميل إلى الغوغائية. لا تحتكم أبدا إلى المنطق، فمحرِّكها الأساسي هو «البروبوجاندا»، خاصة صغار السن الذين لا يعرفون حقيقة الموقف. فعقدوا آمالاً عِراضاً على «جنجا». فالناس كما قلنا يخلطون بين أنواع البطارة.. بين المضاربة وبين الصراع الكروي المحكوم بالنظام والقوانين.

أطلق الحكم صافرة البداية فاحتبست الأنفاس، وكأن الساحة أخليت من البشر. مرَّت ربع الساعة بتحفُّظ من الفريقين، وهو ما

يُعرف بجسّ النبض. في هذه الفترة لم تصل الكورة إلى «جنجا» إلا مرتين أخفق في السيطرة عليها.

ويبدو أن «جنجا» ساوره القلق، ولم يعرف أنه أدخل نفسه في امتحان كان في غِنى عنه. فالفريق الآخر جاء من الطرف الثاني من شارع الخزان. ولم يكن متأثراً بالسمعات المختلفة، وأخذ يتعامل مع لاعبي العسيلة بواقعية كاملة. و«جنجا» حسب النظرة الواقعية لا يزيد عن مراهق متوسط القيمة. ولكنه كان متأثراً بسمعته في حارته، فلم يتبصَّر الفرق بين القوة الحقيقية والقوة المزعومة المدعومة بالضجيج، فظن أن سطوته ستنسحب على الفريق الخصم أيضاً. فبدأ يتنرفز، ويُكثر من الاعتراضات والمقاطعات، وكان الجمهور الغافل يدعمه بصيحات التأييد (درب درب يا جنجا).

كان «سنتر هاف» فريق نمور الخزان شاباً ضخماً يعادل ضعف وزن «جنجا» تقريباً، داكن اللون، يُعرف بـ«الكديش»، إذا وقف «جنجا» إلى جانبه كأنك ترى حوتاً قرب سمكة.

وفي الوقت نفسه كان في فريق أشبال العسيلة لاعب حرِّيف ومراوغ وخفيف دم، وفي غاية الذكاء، يُلقَّب بـ(القعيس). كان أحق بمركز رأس الحربة، ولكنه تراجع عن هذا المركز لمصلحة «جنجا» ووقف في مركز «الهاف باك».

تناول القعيس الكورة، وسار بها إلى منتصف ملعب فريق نمور

الخزان بعد أن تجاوز اثنين من لاعبيهم. فلم يعُد أمامه سوى الكديش، إذا تجاوزه فهذا يعني أن القعيس سيصبح في مواجهةٍ مباشرة مع حارس المرمى، والكديش بحُكم مركزه اندفع ناحية القعيس بكل عزم. ولكن بدلاً من أن يعمد القعيس ويفركه الكديش ويتجه إلى الباب وهو قادر بكل سهولة، فالكديش كان في غاية التهيج والاندفاع، ولكن القعيس حسبها بدقة، فهو هنا يواجه قوتين عاتيتين: الأولى تكمن في هذا الثور الهائج المندفع نحوه، والأخرى النفوذ الذي يمثله «جنجا». فلو قُدِّر له أن يفرك الكديش، ثم ضيَّع الكورة فلن يسلم من «جنجا»، فكما هو مخطط له فإن «جنجا» يجب أن يُسجِّل الأهداف. في اللحظة التي كاد يلتحم فيها مع الكديش مرَّر الكرة عرضية إلى جنجا، فكانت نهاية «جنجا» ونهاية أهل العسيلة في نفس الوقت.

استلم «جنجا» الكرة نظيفة، فصرخت الجماهير، واهتزت حيطان العمائر المجاورة، ولكن من سوء حظ «جنجا» أن المنطقة التي استلم فيها الكورة كانت خالية من اللاعبين مما مكَّنه من السيطرة على الكورة تماماً، ومضى بها نحو الهدف وهي فرصة تاريخية أخرى لجنجا ليحقق منها نصراً جديداً يُعادل نصره الشهير على اليماني، ربما ينقله إلى مستوى الأسطورة، ولكنه سجَّل شيئاً آخر.

دفع «جنجا» الكورة أمامه، وانطلق لا يلوي على شيء تحت

صرخات وصيحات الجماهير الغفيرة. كان الثور الهائج (الكديش) قد تلقى إهانة صريحة من «القعيس» حينما فوَّت عليه الدخول؛ لأن تقديرات الكديش وسياق اللعبة يفترض في القعيس أن يتجه ناحية الباب، ففي أي لعبة إذا لم يكن أمامك سوى مدافع واحد مندفع فمن السهل التهامه.

فالكديش الهائج أجرى حساباته بواقعية وبمعرفة بتكنيك كرة القدم، ولم يعلم بالحسابات الداخلية في نفس القعيس، والظروف الموضوعية التي تحيق بفريق نمور العسيلة. فتقديراته يدعمها أي منطق رياضي سليم. فكان اندفاعه نحو القعيس بخطةٍ واضحة، إما أن يخطف الكرة أو أن يشيل ساق القعيس. ولكن القعيس دمَّر أساسات خطة الكديش بتلك التمريرة القاتلة، مما جعله يتحرَّك بلا نظام أو فكرة محدَّدة للتصدِّي للوضع الجديد، الذي نشأ من نقل الكرة لشخص ليس في الحُسبان. فالتفت الكديش وزوى نفسه بسرعته الهائلة واندفع نحو جنجا لا يقصد الكورة أبداً، وكأنه على خصومه مباشرة مع العالم كله.

كانت تلك فرصة عظيمة لجنجا لإثبات مهارته. فالرجل هائج ومجروح. فلو كان لدى جنجا أي أقل معرفة بالكورة لسحب الكرة يميناً أو شمالاً وترك الكديش يتخبَّط في مزيد من هياجه. عندها سينكشف له الباب كما تريد منه الجماهير. ولكنه بدلاً من استخدام هذا التكنيك البسيط، رفع بوت الفلو المعزز بالمسامير ورفس بطن

الكديش رفسة أخطأته. فأعطى الكديش المبرّر القانوني والسيكلوجي للتنفيس عن نفسه من الإهانة التي ألحقها به القعيس. فاختطف جنجا من وسطه، ورفعه عن الأرض، وقبل أن يحط به أرضاً عصره في الهواء، ثم أماله، ورفع جسده مرة أخرى إلى أقصى علو حتى كاد يُلامس حدود عمارة الزهرة أعلى عمارة في الرياض في ذلك الحين.

وبعد أن اتخذ جسد جنجا الوضع الأفقي في الفضاء، ضرب به على الأرض. فلم يكن جنجا بحاجة لغيرها لتنقشع عنه غشاوة الغرور. وعندما فتح عينيه عرف أن جسده أصبح في قبضة عاتية، فقرَّر أن يتعامل مع الواقع بواقعية كاملة، فصرخ: (تكفون يا أهل العسيلة.. تكفون يا أهل العسيلة)، ولكنَّ أهل العسيلة مع الأسف لم يرتضوا التعامل مع الموقف بنفس الواقعية، واعتبروا أن هذه الصرخات جزءاً من تكنيك قتالي.

فـ«البروبوجاندا» لوَّثت نظرتهم للحقيقة، فتركوه يرعى مصيره وحده. فرفعه الثور الهائج مرة أخرى عن الأرض، وأعلاه إلى مستوى رأسه وألقاه مرة أخرى على الأرض، فنزل هذه المرة على وجهه فتفرصعت عيناه الجميلتان من الآلام، ويُفترض أن الضربة الثانية توقظ حِسَّ الواقعية عن جماهير العسيلة فيهبُّون لنجدته. إلا أن هناك عوامل أخرى ساهمت بقوة في تأصيل قيم الأسطورة والإبقاء عليها. فأهل العسيلة عندما قاسوا الأمر وجدوا أن الالتحام

مع أهل حوطة خالد ليس في صالحهم. فهم أولاً أقرب إلى شارع الخزان، ومعظم الجماهير المكتظة تؤيد فريق نمور حوطة خالد. مضافاً إلى ذلك قِيم العدل، فالجميع يشهد بأن جنجا كان هو البادئ. فالحرب بين الفريقين ستعني في النهاية هزيمة عسكرية ساحقة مضافاً إليها هزيمة أخلاقية. لا بأس إذاً من التضحية بالبطل، فاليابانيون ضحُّوا بأعظم جنرالاتهم لإنقاذ اليابان، وأهل العسيلة لن يقلوا أريحيَّة عن اليابانيين.

كان أهل العسيلة قد أحضروا معهم صندوق برتقال لتناوله في «الهاف تايم»، وضعوه تحت حراسة «عريج»، فهبَّ أهل الخزان ونهبوه، فاضطر «عريج» الدفاع عنه رغم أنه يعرف أن الدفاع عن صندوق البرتقال أصبح أمراً ميئوساً منه، إلا أنه أظهر شجاعة نادرة في حماية ممتلكات أهل حارته. فعريج لم يتعوَّد الهرب في المواجهات. فاضطر أن يدخل معركة بشروط لم تكن شروطه، وعلى أرض ليست أرضه، وبمساعدة وجوه جديدة لا تعرف كيف تقاتل. فانكشف «عريج» لأول مرة أمام شباب جُدد من مناطق جديدة لم يكن موجودين أيام صراعاته. فالحرب الجديدة لها حسابات كثيرة غير القوة.

عندما تدخلت الشرطة في اللحظات الأخيرة من «العركة» لم يبقَ من أهل العسيلة غير بوت جنجا وبعض برتقالات «تفغصت»

من دعس الأقدام المتقاتلة، وغتر مترامية هنا وهناك، وطواقي، وبقايا طقم فريق نمور العسيلة.

كانت ضربة نهائية أزالت هيبة أهل العسيلة من الوجود، وأدخلت عناصر أخلاقية وعناصرية قوية جديدة.. لم أشاهد «جنجا» بعد ذلك، ويُقال إنه سقط في الأيام الماضية، حيث مات بعد تلك المباراة بسنوات قليلة.

وبعد موته تغيَّرت قِيم الصراعات، وتبدلت مقاييس الحب والحرب والتقاتل، ولكن تلك قصة أخرى تُكتب بلغة أخرى.

* * *

قلعة طوير

كل سعودي يفرح بالمطر ما عدا زوجة أبو عبد العزيز. تكون في حالة كرب عند توقع هطول الأمطار. ومن باب الإيضاح: هي لا تكره المطر على إطلاقه، ففي صيف مضى سافرت معه إلى لندن ولم تشعر بأي كرب رغم الأمطار الزاخّة هناك.

يصل أبو عبد العزيز الساعة التاسعة صباحاً أسوة بكل المديرين المميَّزين، وقبل أن يُسلم أو حتى يدخل مكتبه، يكون السكرتير ناصر قد أعدَّ له قائمة الحضور والغياب. لك أن تراجعه وتعترض على قراراته في أي قضية: الإجازات، المناقصات، الحب، الكراهية، ولكن قضية الحضور والغياب قضية أيديولوجية لا تحتمل العبث. ولو بحثنا في تاريخ الإدارة في السعودية لاكتشفنا دون تعب أن أبا عبد العزيز هو مخترعها، خلافاً للسائد الذي يقول إنها من الأفكار التحديثية التي جاءت مع المصريين.

أيديولوجية الحضور والغياب موجودة قبل أن توجد الإدارات الجديدة، والدليل أن أبا عبد العزيز المتقاعد الآن، مارسها منذ أكثر من أربعين عاماً.: معروف أنه لم يلتحق بأي دورة في أي

معهد. كان يزدري التعليم، ليس لأنه لم يتعدَّ الابتدائية، ولكن لأنه رجل عملي يؤمن بأن الحياة هي أكبر جامعة يتربَّى فيها الإنسان، كان يقول: «طالما أننا سوف نلتحق بجامعة الحياة رغماً عنا فلِمَ الكلافة»، يتمتع أبو عبد العزيز بذاكرة غير عادية، ما زال يتذكَّر كل موظفيه منذ أن التحق بالوظيفة حتى آخر أيامه. كم عدد الأيام التي غابها صالح وفهد وغيرهما منذ أن أصبحوا تحت إمرته، بل يتذكَّر مبالغ الحسومات التي أعادها إلى وزارة المالية ولم يُشكر عليها.

هناك قواعد عاش أبو عبد العزيز يكرِّسها ويطبِّقها حتى أضحت جزءاً من حياته الشخصية. أولى القواعد بعد الحضور والغياب قاعدة السرية في العمل، كل ورقة موقعة في دائرة حكومية هي من أسرار الدولة، ويُحاسب من يفشيها.

في إحدى المرات ضاعت ورقة في معاملة مالية حُوِّلت إليه من رئيسه، في المرفقات ثمانٍ والموجود في الدوسيه سبع فقط.. اهتزت أركان الوزارة، وفي الليل أصيب بالحُمّى منتظراً أن يأتيه الجيب يغمّ عيونه ويغيب شمسه، بعد ذلك تأتي القاعدة الذهبية وهي أن الفراشين هم عصب الحياة في أي إدارة، وأي إدارة بلا فراشين يراها أبو عبد العزيز مثل (الحمّار بلا مشعاب).

كان يعرف كيف يعصر الفراشين ويخرج منهم عُصارة مواهبهم. يشهد بذلك كل الفراشين الأحياء الذين عاصروا أبا عبد العزيز في

مشواره الإداري المديد.. ومن القواعد الإدارية التي رعاها أبو عبد العزيز أيضاً أن المدير مسؤول عن توفير مبالغ الميزانية لا صرفها.

أول مرة أعطي السيطرة على ورقة الحضور والغياب في عِز شبابه قال (أورِّيك فيهم)، كان البعض يظن أنها فورة شباب ستهدأ بعد أن يتذوَّق أبو عبد العزيز طعم القيادة، ولكن الأحداث وسياق التاريخ كذَّبت تلك التخمينات جُملة وتفصيلاً، وبرهنت أن أبا عبد العزيز قول وفِعل، فلم تبرد تلك الشعلة أو تتوقف إلا بعد أن أعلن تقاعده بعد إصابته بمرض السكر، أو مرض العصر كما يُسمِّيه بعض الناس. وإذا كان المقصود بالعصر هو العصر الحديث فهذا يعني أن أبا عبدالعزيز لم ينله من هذا العصر إلا مرض السكر.

تقاعد أبو عبد العزيز بعد مشوار طويل من العمل الدؤوب دون أن يعرف أن شعار (أورِّيك فيهم) الذي رفعه قبل أربعين سنة في وجه طغمة من الموظفين المتلاعبين سيكون الطاقة الإدارية التي تعمل بها الدوائر الحكومية في بلاده، والشعلة المضيئة التي تنتصب أبداً على رأس فن الإدارة في المملكة العربية السعودية.

بعد أن خرج أبو عبد العزيز على التقاعد، لم يجد ما يكفي من الحماس لبدء حياة جديدة تتصل بالإدارة. ففكَّر في أن يفتح مكتباً عقارياً، ولكن شروط إدارة المكتب لا تنطبق على خبرته في إدارة مرفق حكومي، أول شيء سيواجهه أبو عبد العزيز أن عند

الفرَّاشين في مكتب العقار لا يتعدَّى شخصاً واحداً، وفي أغلب الأحيان لا يكون هذا الفرَّاش سعودياً، وأبو عبد العزيز لا يتخيَّل إدارة بلا فرَّاشين، كما أن أساس الإدارة هو مراقبة حضور الموظفين وغيابهم، وفي مكتب العقار لا يوجد موظفون سواه، هل يراقب نفسه؟ فكَّر في وظيفة شريطي سيارات، ولكنه وجدها شبيهة بالأولى.. لا علاقة لها بخبرته.

راتب «أبو عبد العزيز» التقاعدي سبعة آلاف ريال، ثمرة تفحيط أربعين سنة، في كل مجلس يقول: إنه أعاد للدولة من الميزانيات التي كانت تحت يده مبلغ ثلاثمائة مليون ريال، ويذكر أن الحسومات التي أوقعها على الموظفين من زملائه تتجاوز عشرة ملايين ريال، ويضيف: عندما يكون في مأمن من الآذان الغريبة أنه هو الذي صرف على الوزارة لا العكس.

من مميِّزات «أبو عبد العزيز» أنه رجل طيب لا تعرف روحه التمرُّد أو الاحتجاج، يسير جنب «الساس»، ويمتثل بسهولة للقواعد المقرَّرة، وينفذ التعليمات والتعميمات، ويصغي للنصائح المتنوِّعة.

عندما أصيب بالسكر، نصحه الأطباء بالكفِّ عن هذا الطعام، وهو من تعوَّد سنوات طويلة ألا يمرَّ أسبوع دون أن تغوص يُمناه في أمتان المفاطيح. اختل البرنامج الذي رعاه سنوات طويلة: في

الصباح فول أو شكشوكة، وبعد الدوام كبسة تفوح منها رائحة اللحم المطبوخ بشدة، أما العشاء فكل ما تيسَّر من أكل خفيف أو ثقيل، مع العلم أن ثمانين في المائة من عشاه يتكون من طحينية وجبن أبيض وإبريق شاهي.

أحسَّ بأن روح القيادة في داخله أخذت في الضمور، فالقائد الحق لا يسلم أمور جسده لغيره، ولكن هذا هو الزمان، بعد الستين تكثر الزيارات للأطباء، فانتبه أخيراً إلى أنه كان يُعالج على حسابه. قال ذات مرة في مجلس آمن: لماذا لا يصرفون للمتقاعدين بدل علاج، ولم يُكرِّرها مرة أخرى.

منذ أن ترقى إلى وظيفة مدير، ترك بيته في «أم سليم» واشترى سيارة أمريكية، وكفَّ عن العلاج في مستشفى الشميسي، ليس من المناسب أن يُعالج هو أو أبناؤه في مستشفى حكومي. لم يتخيَّل أن يتدافع مدير إدارة مع الخادمات والسواويق وزملائه الفراشين وصغار الموظفين في أسياب العيادات الخارجية لهذا المستشفى المتداعي، وبعد أن راحت السكرة وجاءت الفكرة، أي بعد أن أحيل إلى التقاعد أحسَّ بأن هذه الرفعة الإدارية أرهقته مالياً. فنصف راتبه صار يذهب للعلاج.

لولا أن الطفرة عبرت حياته لانتهى في حلة ابن نصار أو السبالة، صدفتان أمَّنتا له بيتا: الصدفة الأولى تفجُّر البترول في المملكة، والأخرى مروره ذات مرة في شارع الخزان، حيث شاهد

الناس تتزاحم وتبيَّن أن هناك مساهمة عقارية، كان يسمع عن المساهمات في الأراضي، لا يعرف حتى الآن كيف اتخذ قراراً و«زل» لهم خمسة آلاف ريال أثمرت في النهاية قطعة أرض صغيرة في حي الملك فهد. انتظر حتى أسست الدولة البنك العقاري وبنى عليها الفِلة التي يعيش فيها الآن، والتي سوف يموت فيها بالتأكيد.

سافر مرة واحدة إلى لندن في رحلة علاج على حساب الدولة قبل أكثر من عشرين سنة. رفضت أم عبد العزيز السفر معه إلى لندن إلا إذا تعهَّد بأن يلبس كنادر هناك، حاول ثنيها عن قسمها ولكنها أصرَّت. لم تكن أم عبدالعزيز تعرف أن لبس النعال في لندن تصرُّف غير حضاري بالنسبة للانجليز. فهدفها لم يكن بروتوكولياً أو إتيكيتياً، ولكنها تعرف أن لندن مدينة لا يتوقف عنها المطر حتى في الصيف.

رغم أنه لم يفِ بوعده إلا أنها عادت من لندن سعيدة، في كل (جمعة) نسوان كانت تمدح لندن. لم يلفت نظرها التمدن أو التسوُّق أو بهاء الحرية على وجوه الناس. لكنها لاحظت بسعادة أن شوارع لندن كأنها مُفصَّلة على نعال «أبو عبد العزيز».

لم يُؤثر عن أبي عبد العزيز أنه لبس كنادر في حياته. جاب حارات الرياض وأزقتها القديمة حافياً حتى بلغ السادسة عشرة من عُمره، كان يدقها رجليه من بيتهم الواقع في حلة البازمي إلى سوق

العلف في دخنة حافياً حتى في عِز الظهر في شهر أغسطس. حاول والده وأقرباؤه حثه على لبس النعال وليس بالضرورة كنادر، ولكنه رفض.

لم يكن الأمر تمرداً ولم يكن الأمر رفضاً احتجاجياً، ولكنه لا يستطيع، هكذا ببساطة حتى الأستاذ منير أستاذ التربية الفنية القاسي الذي كان يضرب الطلاب بسبب وبدون سبب لم يستطع أن يجعل النعال جزءاً من حياة أبي عبدالعزيز. أمام سطوة هذا الأستاذ القاسي اضطر (أبو عبد العزيز) أن يقبل لبس النعال في حصته فقط، أي مدة ساعة إلا ربعاً في اليوم أو أقل إذا حسبنا عدد حصص التربية الفنية والغياب.

كان يحتفظ بالنعال في الشنطة حتى يصل إلى المدرسة وقبل الدخول يضعها في رجليه خشية أن يصادف الأستاذ منير، ثم يخلعها بعد أن يطمئن. لم يعتمد النعال كجزء من ملابسه الأساسية إلا بعد أن التحق بالوظيفة. كان يرد على زوجته أنه يتضايق من لبس النعال؛ لأنه يحسُّ بأنه يلبس نعلين في نفس الوقت.

عبر سنوات التكوين تشكّلت تحت قدميه طبقة غليظة أقوى من أيِّ نِعال أو «كنادر». نعال مبنية من خلايا إنسانية متصلبة، محشوة بما يلتصق في باطن القدم من خشاش الأرض.

في إحدى المرات كان أبو عبد العزيز (قبل أن يُعرف بأبي عبد

العزيز) جالساً ممدّداً رجليه أمام منزلهم يتدارس مع بعض الأصدقاء حقيقة نزول الإنسان على القمر. فالعالم بين مُصدِّق ومُكذِّب. وأبو عبد العزيز لم يرَ أي سبب للتكذيب. لا يعرف أحد مِن أين جاءته تلك القناعة العلمية المتطورة.

أثر عن أحد المشايخ أن قال إن الأمريكان نزلوا على جبل طوير، وليس على سطح القمر. ومنذ ذلك التصريح والناس يكذبون ادعاءات الأمريكان، ويصدِّقون قولِ الشيخ، إلا أبا عبد العزيز، فقد اعتمد رواية الأمريكان. رغم أن الشيخ أكد نظريته بالتشابه الكبير بين جغرافية طوير وأرض القمر.

كان يقول إن جبل طوير يشبه تمام الشبه أرض القمر، وهذا ما جعل الأمريكان يعمهون في جهلهم. لم يسأل أحد الشيخ: أين موقع جبل طوير، وكيف رآه دون الآخرين؟ حتى أبو عبد العزيز لم يسأل: أين يوجد جبل طوير.. كان ينفي أن الأمريكان نزلوا في جبل طوير. مما يوحي بأن أبا عبد العزيز كان يعرف أين يقع جبل طوير أيضاً.

انقسم الناس بين من يرى أن الأمريكان نزلوا على القمر، ومن يرى أن الأمريكان نزلوا في جبل طوير. كانت الغالبية تؤيد رأي الشيخ بلا تردد. وقد تواتر عن الشيخ بعض الأوصاف العامة لطبوغرافية جبل طوير كما شاهدها الناس في الصور التي بثتها وكالة «ناسا» عما يدَّعيه الأمريكان بأنه القمر.

رغم أن المرء سيظن من الوهلة الأولى أن سطح جبل طوير رملي إلا أن الشيخ أكد أن تحت تلك الغلالة الرقيقة من الرمل يقع كثير من الشوك والصخور الصغيرة الحادة مدللاً على كلامه بنوعية الكنادر التي يلبسها روّاد الفضاء وهم يجوبون طوير أو القمر كما يزعم الأمريكان.

لتأكيد خلافه مع رأي الشيخ صرَّح أبو عبد العزيز بأنه على استعداد أن يسير على سطح جبل طوير أو سطح القمر حافياً. وقد لفت هذا الرأي المتطرف، الذي يتعارض مع الرأي العلمي الذي أقرَّه الشيخ، انتباه الجالسين إلى خصوصية قدمي (أبو عبدالعزيز). فأطل أحد الجالسين وتفحَّص باطن قدم (أبو عبد العزيز) ولاحظ شيئاً مكوَّراً ذهبي اللون، يكاد يختفي تحت طبقة من اللحم الأشهب. حاول أبو عبد العزيز انتزاعه بظفره دون جدوى، وبعد مداولات أحضر شقيق (أبو عبد العزيز) قمر صلصة وقشعة. فتبيَّن أنه قمر «مركا». من مسامير المراكي ذات الرؤوس الذهبية الكبيرة. بعد هذه اللقيا المميّزة، سعى الجميع للكشف عن محتويات باطن قدمي (أبو عبد العزيز): مسامير صغيرة، وبقايا عظام، وشظايا أعواد... إلخ، لعلهم يتوصلون إلى ما توصَّل له الأمريكان.

كل ما في (أبو عبد العزيز) يوحي بأنه خلق مُديراً عدا أنه يمشي حافياً. عندما ذهب إلى ديوان الخدمة بعد أن نال الشهادة الابتدائية لتقديم طلب الوظيفة، اضطر أن يشتري نعالاً زبيرية،

واضطر أيضاً أن يلبسها عند بوابه الديوان. كان هذا بعد ثلاث سنوات تقريباً من نزول أول إنسان على سطح القمر أو سطح طوير حسب نظرية الشيخ.

بغض النظر.. أين هبط الأمريكان (طوير أم القمر) يكفي الأمريكان فخراً أن الشيخ عندما كذبهم في مسألة الهبوط على القمر، لم يُقلل من عظمة الإنجاز في إشارة واضحة إلى صعوبة الوصول إلى سطح طوير. وقد حث الشيخ الشباب على التعلم وخدمة أمتهم لكي نلحق بركب الأمم. كان أبو عبدالعزيز قد بلغ التاسعة عشرة وأصبح واحداً من هؤلاء الشباب (المحثوثين).

قضى أبو عبد العزيز أربع سنوات في السنة السادسة الابتدائية وحدها في صراع مرير مع مادة الحساب. وعندما فرجها الله لم يفكر أدنى تفكير في استكمال دراسته المتوسطة. بحساب بسيط (مع أن الحساب عدو أبو عبدالعزيز الأول) وجد أن مسألة إكمال الدراسة أمر مستحيل إلا إذا قرر أن يبقى على مقاعد الدراسة حتى بلوغه الستين. الدراسة على كل حال ليست كل شيء. فالشيخ صاحب نظرية طوير لا يحمل أي شهادة، ومع ذلك يقارع الأمريكان الحُجة بالحُجة. فإذا كان العلم يأخذ أصحابه إلى القمر فالعمل في الوظيفة الحكومية سيأخذه إلى طوير، وهذا ما حدث بالفعل.

* * *

راعي العسيلة

قبل كم يوم التقيته بالصدفة في سوق عتيقة. لم أره منذ حوالي ثلاثين سنة. لم يكن بيني وبينه تلك المعرفة. كل الذي كان بيني وبينه إعجاب مشترك لمجموعة من الأغاني الجميلة. كنت أراه تقريباً يومياً في الأيام الأخيرة من رياض السبعينيات. في ربيع سنة ستٍ وسبعين ميلادية على وجه التحديد. منذ تلك الأيام لم أشاهده، ولم أعُد أسمع عنه.

عندما تعيش مع الإنسان يوماً بيوم لا تحسُّ بالتغيُّرات التي يُجريها الزمن. فالتدهور يتوسَّع في جسد الإنسان ببطء وبطريقة غادرة. يضرب في جهات متباعدة، وكأن كل ضربة لا علاقة لها بالضربة التي حدثت في الجانب الآخر من الجسد. ولكن في النهاية تتكامل الضربات لترى أن ما حصل قد تجلى في كلمات مختلفة: مرض، قبح، وهن. مجموعة من الانهيارات الصغيرة المتفرِّقة تتراص وتتداخل لتختصر في كلمة واحدة ونهائية: الشيخوخة.

في الأيام التي عرفته فيها كان (دائماً) عمره أربعين سنة. لقد تسمَّر في مخيِّلتي بهذا العمر. ربما كان عمره أصغر من أربعين سنة

في يومٍ الأيام. ولكنه بدأ في ذاكرتي بهذا العمر، وانتهي من حياتي بهذا العمر. كل شيء عرفته عنه كان في ربيع سنة ستٍ وسبعين ميلادية في السنة التي غادرت فيها الرياض القديمة إلى الأبد. لعله كان أجمل ربيع مرَّ على مدينة الرياض. الربيع الذي تزدهر فيه ورود القلب.

ففي صيف نفس السنة سافرت إلى لندن. وعندما عرف بأني سأسافر بعيداً أهداني مُسجِّلاً صغيراً مع نُسخ لجميع أغاني أم كلثوم التي يملكها. كنت أكثر شركائه في جماليات أم كلثوم، كان يُعدّني خليفته في الاحتفاظ بتراث هذه الفنانة الكبيرة. سلَّمني حوالي أربعين شريط كاسيت حشاها في كيس نايلون، وأوصاني بها خيراً، كأن كل كيس يحوي سنة من سنوات عمره.

كانت أم كلثوم كل شيء في حياته. يحفظ أغانيها ويصنفها، ويحتفظ بتواريخها. ولكل أغنية من أغانيها قصة تتطوَّر في كل مرة يقصُّها. كان «روشن» بيتهم متحفاً للطرب الجميل. لا يمكن أن تعرف عن حياته أي شيء، لكنه لم يكن غامضاً، ولم يكن يخفي شيئاً. كان طيِّبا وبسيطاً. إذا زرته في بيته فلن يتحدَّث معك في أي موضوع غير موضوع أم كلثوم.

دخلنا عليه آخر مرة في روشن بيته، فوجدناه مستلقياً على

«المركا» لافاً ذراعه على جبهته. عندما شاهدنا ابتسم وفي عيونه قليل من الدموع. لا أنسى أغنية «هجرتك».

كانت أم كلثوم تردِّد ذاك المقطع الرائع المدرّ للدموع: (صعب علي جفاك بعد اللي شفته في حبك.. مش قادر أنسى رضاك أيام ودادك وقربك.. لكن أعمل إيه وأنا قلبي لسه صعبان عليه) لم نسلِّم. ولم نشأ أن نوقظه من خدره الجميل. بعد أن انتهت الأغنية وهدأت فورة العواطف، أنهيت له بأني سوف أسافر. وإذا عُدت فلن أعود إلى الرياض القديمة أو إلى ابن بخيت القديم. لقد قضى الله أن تتغيَّر المصائر. لقد تمَّ تثمين بيتنا في حي العسيلة، وعندما أعود سيكون قد داهمه طريق الملك فهد العملاق ليزيله، ويزيل العسيلة معه من الوجود.

لو لم ألتقِ به في عتيقة مؤخراً لربما مات وهو في الأربعين من عمره. شاهدته يسير بين الجموع متهدماً خائر القوي، يقوده هندي، من الواضح أنه سائقه. تركتُ ما في يديَّ ولحقت به. كان يبعد عني حوالي أربعين متراً. اقتربت منه. لم أشأ أن أسلِّم عليه أو أوقظه على الماضي بطريقة فجة.. رُحتُ أتأمل فيه وأطالع آثار الزمن. كم بقي لي من العمر لأصل إلى كل هذا التفكّك. اقتربت منه أكثر وأكثر حتى أصبحت خلفه تماماً. لابد من اتصال معيّن.

فجأة طرأت على بالي فكرة سوف تحطم السنوات الطويلة.

تزيل الثلاثين سنة الماضية، وترمِّم الانهيارات التي أحدثها الزمن في جسده. قرَّرت أن أبدأه من حيث انتهينا. من آخر شيء مشترك. اقتربت من أذنه وغنَّيت بصوت خفيض: (صعب علي جفاك بعد اللي شفته في حبك.. مش قادر أنسى رضاك أيام ودادك وقربك....) قبل أن أتمّ المقطع التفت وقال دون تردد: أكيد واحد من أهل العسيلة.. حسبي الله ونعم الوكيل.

* * *

قِدر «عمشا»

«قِدر»: مفرد قدور وليس مفرد أقدار، رغم أن القارئ سيأكله الشوق ليعرف مع نهاية هذه القصة مصير قِدر «عمشا» بعد أن اختفى بلحمته وكامل كشنته من المطبخ دون أي تفسير منطقي. كادت «عمشا» تموت من الغيظ، ليس لأن قِدرها اختفى من المطبخ وخسرت اللحمة وأدى إلى مشكلة كبيرة مع أطفالها، ولكن لأن اختفاء القِدر بتلك الطريقة كان شيئاً أقرب إلى الخيال منه إلى الواقع.. أقرب إلى فِعل الجنّ منه إلى فعل الإنس.

عادت «عمشا» إلى المطبخ بعد أن غابت أقل من عشر دقائق لتفاجأ بأن قِدرها بمحتوياته غير موجود. التفتت يميناً وشمالاً لعلها هي التي سحبته إلى هنا أو نقلته إلى هناك. ولكنها سرعان ما تخلت عن تكذيب نفسها. فهي متأكدة تماما من أن القدر كان قبل قليل على الحطب المشتعل وأنه اختفى بفعل فاعل. بالنسبة للحمة فتفسير اختفائها سهل. فالقطاوة تجوب الرياض ليلاً ونهاراً، وتقتحم البيوت، ويمكن أن تخطف أي لحمة لا تتوافر لها الحماية الكافية.

إذا كانت هناك سرقة فالمنطق يقول إن الحرامي الذي يقتحم أي بيت لا يمكن أن يفكر في سرقة قِدر مسود ومحلي و«معفط»، حتى ولو كان في داخله كافيار وليس لحمة بعير عجوز.

وإذا كان الفاعل «حرامي» إنسياً فلماذا سرق القِدر وترك أشياءً أهم مثل الغوايش والرشرش وأخرى مثل الأسطوانات و«البكم» وغيرها من المقتنيات الثمينة في البيت. كان زوجها في غاية المنطق عندما طرح عليها هذا السؤال. حدثٌ محيِّر بكل المقاييس لذا فكل إنسان سوف يقرأ هذه القصة سيتعاطف دون تردد مع «عمشا». فعمشا ليست ضحية سرقة كلاسيكية. إنها ضحية حدث مليء بالأسرار.

عمشا امرأة حنطية أميل إلى السمار، طويلة القامة، قوية البنية، من النوع الذي يُسمى «رجالية».. إذا «قضبت» الرجل مع جرانه فقل عليه السلام.. يكفي مدينة الرياض أن تتذكر قصتها مع الطبيب الهندي الذي رفض أن يُعطي ولدها ناصر إبرة وأصرَّ أن يعطيه حبوباً بيضاء. حاولت معه بالتي هي أحسن، وعندما أصرَّ الطبيب على موقفه قالت له دون تردُّدٍ أو خجل: تعطي ولدي «دجنان» يا ابن الكلب.. من سوء حظ الطبيب الهندي أنه كان يعرف معنى الشتيمة التي ألقت بها عليه، فنهض غاضباً معتداً بنفسه وبرجولته.. فكانت مناسبة عظيمة لتفعيل قبضة «عمشا» الفولاذية. ما إن تحرَّك

تاركاً طاولته حتى بادرته بضربة كف دوَّت أصداؤها في أرجاء مستشفى الشميسي.. وضع الطبيب الهندي راحتي يديه على خده المغدور وفركه لتبريد جهنم التي وقعت عليه، وهو يصرخ بلغته البنغالية، فردَّت عليه «عمشا» على الفور بلغة منفوحة: «اقعد يا ولد الملاعين).. لم تترك له فرصة العودة من ذهوله، ومن الآلام التي أنزلتها على وجهه.. حيث اندفعت نحوه وفمها مليء بكل السُّباب و«وقبضت» جرانه ورفعته قليلاً عن الأرض، وبعد أن تمكَّنت منه معلقاً في فضاء الرعب، ضغطته على الجدار الموالي للطاولة.. عندما أحس الهندي بأن جسده كله وليس جرانه أصبح في مهبِّ العاصفة تخلى عن دعاوى رجولته، وأهمل شؤون كرامته.. فميزان القوة الذي مال إلى «عمشا» لم يعُد يسمح بمثل هذه الرفاهية العاطفية.. فالمسألة حياة أو موت.

عندها قرر طلب النجدة، ولكن قبضة «عمشا» تجاوزت هذه المرحلة التي يتخبَّط فيها الطبيب الهندي، وأدخلته في صراع مع رئتيه اللتين راحتا تطلبان منه أن يزودهما ببعض الأكسجين إذا هو ما زال على رغبته القديمة في الاستمرار في الحياة.. انهارت كل قدراته على المقاومة، ولم يبق منها إلا مقدار قليل من حركة في يديه تشي بأنه ما زال حياً يستحق الرحمة.. عندما أصبح خرقة في قبضتها بلغت «عمشا» نهاية غيظها وبردت كبدها فألقت به على

الطاولة، وسحبت ابنها وهو ما زال يسعل ويكحكح، وقبل أن تخرج من العيادة التفتت إلى الطبيب وقالت: لا عاد أشوفك تعطي الناس حبوب «دجنان» يا ابن الكلب.

لا شك في أن التاريخ سيسجِّل أن «عمشا» هي أول فرد من أهل العسيلة يدخل في معركة على مستوى دولي، لكن أكبر غلطة ارتكبتها «عمشا» في سياق بحثها عن القِدر، أنها أقسمت على الملأ أن تقتل الحرامي إذا وضعت قبضتها على جرانه.

هذا القسم لامرأة «قول وفعل» جعلني أكتم السر في قلبي أكثر من خمس وثلاثين سنة. ولكن بعد هذه السنين الطويلة أصبح من حق الجميع أن يعرفوا الحقيقة كما حدثت.

عندما فشلت «عمشا» ومساعدوها (خالتها وأختها وزوجها ونساء الجيران) وغيرهم.. عندما فشل كل هؤلاء في اجتماعاتهم المتكررة في وضع تصوُّر إنساني معقول لاختفاء القِدر بلحمته وكشنته، اتفقوا بأغلبية ساحقة على أن السارق جني، ولكن «عمشا» بحسِّها الواقعي وافقت من حيث المبدأ على هذا التفسير، إلا أنها أبقت ظلال شك بأن هناك إنسياً يقف وراء كارثة القِدر، فهي لا تريد أن تغلق باب البحث في العالم الواقعي، فالجن لا شك لهم أدوار خفية يلعبونها، ولكن الإنس حسب وجهة نظرها أشد عداوة وبطشاً بأبناء جلدتهم.

كانت هناك عقبة بسيطة حالت دون حسم القضية نهائياً حتى بين الكتلة التي ترى أن القِدر اختفى بفعل الجن، وهي الكتلة التي تقودها خالتها حسينة، ففي تاريخ الرياض وضواحيها لم تسجّل حتى تلك اللحظة سرقة ضد جني، فعمشا تطبخ في نفس القدر وفي نفس المطبخ على نفس الموقد وفي نفس القوع بنفس البيت منذ أكثر من خمس عشرة سنة.

في آخر اجتماع للجنة قدر «عمشا» سُوِّيت كثير من القضايا المتعلقة باختفائه، وبعد ساعات من المناقشات وتبادل الرأي والرأي الآخر، ترك السؤال معلقاً لفرصة أخرى، هل كان الجني (اللص) في حاجة إلى اللحمة أم إلى القدر؟ وإذا كان في حاجة للقدر فلماذا لم يأخذ معه غطاء القدر و«الملاس»، حتى في الليل عندما تستيقظ «عمشا» وتطرح على زوجها بعض الفرضيات التي أغنتها هواجيس الليل كان زوجها يرفض الخوض فيما هو أبعد من حدود الاعتراف بأن هناك جنياً، ويحاول أن يدفعها برفق لأن تطرد الهواجس المتعلقة بالقدر من عقلها نهائيا، بل تنسى موضوعه جملة وتفصيلاً، لم يكن خائفاً على «عمشا» من الجن، وإنما كان خائفاً على الإنس من بطش «عمشا».

كان يؤكد لها دائماً أنه كان ينوي تغيير القِدر على أي حال، وهو يعرف سبب قلقها، فهي لم تهتم كثيراً بقيمة القدر المادية ولكن بالحادثة نفسها وبكبريائها المجروح، فقد جرت العادة في

العسيلة وحارات الرياض المحيطة بها أن «عمشا» لا تلين ولا تتردد وتذهب في الصراعات إلى أقصاها، وبالتالي يعرف زوجها أن أي متهم سينال عقاباً أكثر مما يستحقه.. قِدر في داخله لحمة هرش، دأب يشرح لها أن الجن في أيامنا هذه تغيَّروا وتخففوا من احترام حق المجورة..

لقد فسدوا كما فسد البشر، ودلل لها بالقطاوة التي أخذت تجوب الرياض في عز النهار، أين منها قطاوة زمان التي لا تخرج إلا في الليل وتحت إلحاح دورة العيشة، وأبسط وأنصع مثال يضربه لها هو الفرق الأخلاقي بين قطاوة زمان وقطاوة هذه الأيام المتحللة أخلاقيا. قطاوة زمان لم تكن تعرف الحب إلا في فصل الربيع، بينما يستطيع كل من يسهر هذه الأيام ولو ساعة واحدة بعد صلاة العشاء أن يسمع صرخات الحُب المكتومة تتجاوب أصداؤها في أي فصل من فصول السنة ضاربين بنواميس الطبيعة عرض الحائط.

فوضى الحب هذه انعكست على قطاوة الجن قبل قطاوة الإنس مع الأسف، فأخذ يذكِّرها بكل القصص التي كان للقطاوة دور فيها، مؤكداً لها أن حادثة قدرها ليست سوى واحدة من سلسلة أعمال كثيرة ارتكبها الجن المتخفي في أشكال قطاوة، واستغل قصة مخيفة أوردتها خالتها في أحد الاجتماعات الصاخبة المخصصة لبحث مصير القِدر ليعيد تأكيدها على مسمعها بطريقته

المعروفة. فـ«حسينة»، وهي خالة «عمشا» لزم، تدين دون هوادة قطاوة الرياض، وتحمّلها مسؤولية كثير من الحوادث الخارقة التي بقيت بلا تفسير، والخالة «حسينة» تحظى باحترام خاص لكبر سِنها، ولأنها أكثر العائلة خبرة في التعامل مع الحيوانات، يكفي أنها المرأة الوحيدة في الرياض التي أسست صندقة في سطحها لتربية الحمام، تشارك الرجال في العصريات في تحويم الحمام وتطييرها. تسمع صوتها من «دحديرا» ابن فيصل وهي تردد: (تع الأدرع.. تع الأدرع...) والأدرع كما يعرفه عيال الرياض واحد من أهم فروخه ذلك الزمان، بيع بمائتي ريال، وبيضه يباع بعشرين ريالاً..

أمام هجمة القطاوة على صنادق الحمام في صيف مضى، لجأت حسينة لبيع البيض قبل تفقيسه بعد أن يئست من صدِّ هجمات القطاوة وإغارتها الخاطفة على صندقتها وافتراس صغار حمامها. وضعت «تنوعية» من الحبالات والمصايد ولكنها لم تُجدِ معها، فأخذت الدليل القاطع على أن تلك القطاوة ليست قطاوة عادية وإنما لها اتصال خفي مع عوالم أخرى، هذا ما جعلها تقود الرأي الذي يؤكد أن قِدر «عمشا» كان ضحية غدر القطاوة المسكونة بالجن.

في السنة التي واجهت فيها الرياض كارثة اختفاء قِدر «عمشا» عاد طالب سعودي (منْ عيال الملز) من أمريكا، ومن باب التأمرك

أحضر معه كلباً ضخماً خطراً، يُعرف بـ«الوولف».. (هكذا سمُّوه).. كان الأول من نوعه في المنطقة، أو ربما في الشرق الأوسط.. لكن قطاوة الرياض مثل عيال الرياض، لا تميِّز بين كلب متوحش أو دجاجة، كان المتأمرك فخوراً بكلبه، وهو - والحق يقال - يختلف جذرياً عن الكلاب الجعرية التي كانت تجوب الرياض ليلاً ونهاراً، في الليل يربط الكلب بسلسلة طويلة في حوش الفلة، وفي النهار في حموة الشمس يدخله في قفص كبير أُعدّ خصيصاً للكلب، مشكلته (الكلب وليس المتأمرك) أنه جاء في الوقت الذي أخذت قطاوة الرياض توسع من ميدان تحرّكها. أو أنها تكاثرت إلى درجة اضطرت معها أن تنتقل إلى الملز. أو أن قمايم الملز اجتذبتها.

أياً كانت الأسباب.. ففي أحد المساءات استيقظ المتأمرك وزوجته وأبناؤه الصغار والجيران على صُراخ الكلب وعوائه، وعندما أطلوا شاهدوا الكلب يكاد يقطع السلاسل الحديدية التي تغلُّ حركته، وعندما رفعوا رؤوسهم بالكاد تبيَّن لهم شيء أسود متكوِّم على السور، فاشتبه عليهم الأمر، فتعوَّذوا من الشيطان.. وبعد ثوانٍ تحرك الشيء الأسود من مكانه واختفى، حاولوا تهدئة الكلب وأخذوه إلى الجانب الآخر من الفلة.

وفي الليلة التالية أفاقت الملز مرة أخرى على صراخ الكلب وعوائه، فشاهدوا نفس النقطة السوداء على السور تتحرَّك، وأخذ هذا الأمر يتكرَّر كل ليلة، وبعد دراسات ومتابعة اكتشفوا أن هناك

قطاً يمارس لعبة خسيسة مع الكلب، كان ينتظر حتى ينام أهل الملز، ويخلد الكلب في سباته فيأتي إلى أقرب نقطة منه على السور، ثم يصرخ (نياووووا)، فما أن يسمع الكلب هذه الصرخة حتى يندفع بالغريزة إلى السور الذي يقف عليه القط، ويحاول أن يقفز ليضعه تحت رحمة أنيابه، وعندما يعجز يتخذ وضعيات مختلفة، ثم يلف من هنا ومن هناك يبحث عن طريق آخر للوصول إلى القط، وعندما يفشل يزداد توتره.

من الواضح أن القط كان يعرف حدود وإمكانيات الكلب، فلم يكن يتحرَّك أو يستثار. يمدد يديه أمامه، ويتكئ هادئاً في وضع يشي بالبراءة ملموماً على نفسه، كأن الأمر لا يعنيه أو كأنه ضيف معزوم في عرس أغراب، وبأقل فتحة من عينيه يكتفي بمراقبة الكلب المتخبّط حتى إذا هلك الكلب من التعب، وقرر أن يلتقط نفساً أو راحة ينهض القط ويتحرَّك بصورة عفوية كأنه يريد أن يغادر، وبعد خطوتين يلتفت بشكل مفاجئ وبطريقة مسرحية على الكلب ويصرخ (نياووووا)، عندها يقفز الكلب مرة أخرى ويعود إلى النباح والاضطراب، فتمتلئ روحه بكل الأحقاد التي ورثها من أصوله الذئبية.

أصبحت تلك حالة يومية تبدأ منتصف الليل ولا تنتهي إلا بعد أن يستيقظ الجميع.

من الواضح أن القط صار يقدِّر الوقت الذي يفصل بين بداية هياج الكلب وبين استيقاظ الناس ووصول النجدة؛ لأنه كان يختفي في الوقت المناسب، عرف الجميع أنه قط من القطط الوافدة من وسط الرياض، ولكن لم يتأكد أحد من ملابسات الحدث وأسبابه، وعندما قرَّر المتأمرك في لحظة غضب أن يثور فيه الساكتون، نصحه أهل الخير ومن بينهم زوجته بالتريُّث حتى يتأكدوا من أن القط قط وليس من أهل الأرض في ثوب قط.

كانت الرياض في ذلك الوقت تتناقل الأحداث الجسام التي تحدث فيها.. مما لا شك فيه أن قصة قِدر «عمشا» قد بلغت الملز، وما زالت بعيدة عن التفسير المتصل بالفعل الإنساني.. فتداخلت القصتان وأصبحتا مؤشرَين على حقيقة واحدة.

عززت هذه الحادثة موقف «حسينة»، ولكنها لم تلن موقف «عمشا» المتشكّك في إمكانية تورّط إنس في عملية السطو على قِدرها.. ورغم الهدوء الظاهر مؤخراً على سلوك «عمشا» إلا أنها ما زالت تفكّر في القدر.. فمهما طال الزمن لابد أن تقف على حقيقة اختفائه، ولكنه لم يعطل حياتها وشؤونها اليومية.

إذا أرادت «عمشا» أن تذهب إلى المقيبرة لتتقضّى أو لبيع منتجاتها من البيض أو «البيزه»، وهي كثيراً ما تذهب، فإن أقرب الطرق هو أن تنتقل من سكة بيتها إلى شارع الشميسي الجديد،

وتعبر الشارع إلى الجهة التي يقع عليها مطعم الفتح لتمرَّ مرغمة من جنب مطبخ الوجار الجديد. ومن حسن الحظ أن قدور مطبخ الوجار لا تذكِّرها بقِدرها، لأن حجم القِدر الواحد يساوي خمسين قِدراً من قدورها.. ولكنها سوف تدخل سوق الربابين الذي يقع تحت عمارة ابن كليب على «إيدك اليمين» وأنت متجه إلى المقيرة، فتقع تحت طائلة الحنين المريع.. وحتى قبل أن تصل إلى سوق الربابين هي ملزمة بأن تسمع طرقاتهم الحادة على الأواني النحاسية، ولا شك في أن بين تلك الأواني قدوراً شبيهة كثيراً بقِدرها الراحل.

وفي اللحظة التي انبثقت فيها «عمشا» على سوق الربابين أحسَّ الجميع بحضور القوة، حتى بين الذين لم يشاهدوها فغاصوا في أوانيهم تفادياً لأي احتكاك معها.. فأم ناصر «هكذا ينافقها الربابون» لا تعرف التهاون أو الرحمة، دخلت «عمشا» أو أم ناصر، إذا أردنا التقدير، سوق الربابين تجرُّ معها ولدها ناصر.. في العطلة الصيفية تأخذ «عمشا» ابنها ناصر معها كقيم إذا أرادت الذهاب للسوق، وهو تصرُّف حكيم، ولكنه لا يلزم امرأة حديدية مثل «عمشا»..

عندما أحسَّ الربابون بحضور «عمشا» في وسطهم تراخت مطارقهم كأنها تأتي من مكان قصِي، فالكل في الرياض متهم بسرقة القِدر حتى تثبت براءته، فعمشا مع الأسف تأخذ بالشبهة. والربابون تحديداً أكثر المتهمين؛ لأنهم أدرى الناس بمصائر القدور

وتحوُّلاتها، فربما جاء الحرامي بقدرها إليهم لإعادة تأهيله ثم بيعه. وكل ربّاب قدور يعرف هذا، لم تكن من نوايا «عمشا» أن تفتش دكاكين الربابين بحثاً عن قدرها، فهي في طريقها للمقيبرة لبيع بعض البيض ولشراء حاجتها من المقاضي.. ولكن القَدَر، وليس القِدْر، فتح فم «أبو دداه» ليقول: وشلونك يا أم ناصر.. عساكم إن شاء الله لقيتوا القدر؟.

فقالت «عمشا»: لا والله يا «أبو دداه» خايفة أنت أو واحد من أمثالك موزيه في دكانه.. تكهرب السوق، واضطربت روح «أبو دداه» وقبل أن يجيب أو يدافع عن نفسه تحسَّس بيده جرانه بقلق من سينفذ فيه حكم الإعدام شنقاً، وقال: أفا عليك يا أم ناصر أنا من يوم سمعت باللي حصل حلفت إني ما عد أرب قدور.. حتى شوفي بعينك ما عندي إلا سحال ودلال وها السمور.. وإن كانك ما صدقتيني تعالي فتشي بنفسك.. نزل عليها كلامه نزول الإلهام، فسوق الربابين هو أفضل مكان تبدأ منه في البحث عن القِدر.. كيف غابت عنها الفكرة وهي تمرُّ من هنا يومياً تقريباً..؟!

عندما أحسَّ الربابون بأنها بدأت تتريّث في المشي وتستغرق في التفكير، عرفوا أن مبادرة «أبو دداه» لن تمرّ على خير، فسبَّه الجميع في سِرهم، فمن واجب أبي دداه الآن أن يتصرَّف بسرعة قبل أن يغوص السوق في حمى العنف.. فهم هنا يتحمَّلون لهيب

الكير ورائحة النحاس المطروق والدحوسة في التراب بهدف دورة العيشة وليس لإثارة القلاقل والفتن.. حسبي الله عليك يا «أبا دداه».

كانت على وشك أن تخطو الخطوة الأخيرة في السوق.. لماذا تُعيدها بنفاقك الزائف، وشلون طلع لسانه من حلقه وهو أذرق واحد في السوق، ولكن فهد المسيمير قريب لزوج خالتها «حسينة» وصديق للعائلة، وأكبر الربابين سِناً، وأكثرهم إحساساً بآلام «عمشا».. اضطلع فورا بالمسؤولية فقال: أم ناصر وشلون أبو مريزيق ما عاد شفناه في السوق عسى ما شر؟!.

سؤال في الصميم.. لملم القضية، ونقل الحوار إلى عُمق العائلة، فمريزيق المذكور هو الابن الأكبر لحسينة، وهذا يعني أن أبا مريزيق المعني في السؤال هو زوج حسينة، وفهد المسيمير لا يسأل في الواقع عن زوج حسينة، وإنما أراد أن يذكِّرها بصلة القربى، ويرجو أن تكون قراراتها القادمة مدروسة وتتسم بالإحساس بالمسؤولية التي عُرفت عن خالتها حسينة، فالسوق مليء بالرجال الغرباء والعابرين من كل جنس ولون، وليس من العدل أبداً أن تبدأ «عمشا» أي صراع فيه، تحسَّست «عمشا» عُمق المسؤولية الملقاة على عاتقها في تلك اللحظة، ولكن حنينها لقِدرها ما زال قوياً، فقالت لتوازن بين رجاء المسيمير المبطن وبين حاجتها لجران سارق قدرها: «ما أبيكم تربون قدور قبل ما تتأكدون من أنها مهيب مسروقة»، هذه العبارة وضعت قضية قِدرها في إطار

أخلاقي عام، فقد أظهرت أنها لا تهتمُّ بقِدرها فقط وإنما طرحت عليهم مشروعاً أخلاقياً يضمُّ كل القدور المسروقة في الرياض، وليس قِدرها فقط، مما جعلهم يشعرون بالامتنان لهذه المبادرة الطيبة التي نزعت فتيل التوتر.

لكن «أبو دداه» لم يطمئن بعد، وإن شابه قليل من الارتياح، فقرر أن يصلح الموقف بدفع مبادرة «عمشا» السلمية إلى واقع عملي فقال: أنا أتعهَّد لك يا أم ناصر بأني إذا شفت قدراً مستنكراً أبلغك على طول، عمشا خبيرة بالرجاجيل ولا تنطلي عليها تزلفات المنافقين منهم، فقالت بكل هدوء وهي تتحرَّك خارجة من السوق: يا ليتك يا أبو دداه تاكل «.....!» وتسكت.

غرق أبو دداه في سحلته التي يربها.. أما «عمشا» فقد اعتبرت كلام أبي دداه تعهداً من كل الربابين باليقظة والتأكد من أن كل القدور التي ترد إليهم معروفة المصدر، سحبت ولدها ناصر بقليل من العنف واختفت في سوق الحساوية، فعادت مطارق الربابين إلى تناغمها السابق، بعد أن همسوا بصوت واحد: حسبي الله عليك يا أبو دداه، المعروف أن أبا دداه ملقوف وكثيراً ما سبَّب مشاكل لزملائه.

جاء الخبر بعد صلاة الفجر مباشرة، ولكنه لم يصل إلى «عمشا» إلا بعد الظهر عندما اتضح لها أن الترتيبات التي تجرى

أمامها كانت للصلاة على ميِّت، دون أن تحدد قالت: ماتت؟ فقال لها زوجها: الله يرحمها، تناثر الخبر في الرياض في وقت قياسي، فشعر كثير من أبناء العسيلة بأن موازين القوة سوف تتغيّر، ولن تجد عمشا بعد اليوم من يضبط سلوكها العدواني، كانت حسينة. رحمها الله. هي الوجه الدبلوماسي في حياة «عمشا» وآل «عمشا»، لولاها ربما أعدمت «عمشا» منذ زمن طويل، فعمشا يبدو أن بصيرتها تأخذ من اسمها الكثير، فهي لا تعرف كيف تتفاوض أو تتفاهم في اللحظة التي يظهر فيها أي اعتراض لوجهة نظرها، تلجأ على الفور إلى الضرب، ولكن الذين شهدوا الأيام الأخيرة لعمشا في العسيلة أشادوا بسلوكها وبإحساسها بالمسؤولية، تبيَّن للجميع أن «عمشا» لم تكن «عمشا» وإنما كانت توظف الأمور بصورتها الصحيحة.

كانت خالتها حسينة بالنسبة لها الوجه المسالم والحكيم في حياتها، وقد تبيَّن هذا بعد وفاتها، حيث بدأت «عمشا» تغيِّر من سلوكها وتستنفد الحلول الدبلوماسية قبل اللجوء إلى القوة، ربما كان للعمر دور، فعندما ماتت خالتها «حسينة» كانت «عمشا» قد بلغت الخمسين.

اتصلت «عمشا» بكل مربّي الحمام في الرياض، وجمعت منهم حمام المرحومة والديون التي في ذممهم، كما سدَّدت كل مديونيات حسينة، بل.ذهبت بنفسها إلى سوق الحمام وأعلنت أن

كل من له مطالب على حسينة يتقدَّم بها على الفور لتسديدها، لم تكن تدقق أو تشكك في أحد.. كانت تريد أن تسدِّد ديون «حسينة» بروح التسامح التي عُرفت بها حسينة نفسها، مع أنها كانت تعرف أن ولد سوير كذاب، وربما كان هو المديون لحسينة عندما قال لها إنه يطلبها أربعين ريالا، أعطته المبلغ وقالت له إذا كنت كذاباً فستنال عقابك في الدنيا والآخرة.

انزوت «عمشا» في بيتها، وعلى مدى سنوات لم تستخدم قبضتها الفولاذية إلا مرتين، مرة عندما اشتكى لها ولدها ناصر بأن ولد سوير اعتدى عليه، سألت كل من في الحارة، وعندما تأكدت من أن ناصر كان صادقا في دعواه ذهبت في إحدى العصريات إلى سوق الحمام وانتزعت ولد سوير من بين أقفاص الحمام المتراصة هو وبعض الأشقياء من أمثاله، وأخرجته على الفور من زحمة السوق وهي تجرُّه بعد أن طوت شماغه على رقبته، فانقاد لها كما تنقاد الخرفان الصغيرة للقصاصيب، وبطشت به حتى أن تجار الحمام ظنوا أن «عمشا» جاءت لقتل ولد سوير، وقد فسّرت الضربة القاسية التي تلقاها ولد سوير بأسباب ثلاثة: الأول أنه ضرب ولدها وهذا هو السبب المعلن، والثاني أنها كانت تعرف أنه كان يكذب عندما ادعى انه يطلب «حسينة» أربعين ريالاً، أما السبب الثالث فيعود إلى أن عمشا تحتقر «سوير» لأسباب أخلاقية.

أما الحادثة الثانية فقد كانت مع «فرقنا» أو البائع المتجول. في

أحد الأيام حوالي الساعة الخامسة ظهراً بتوقيت أيام «عمشا» أو الساعة الحادية عشرة بتوقيتنا الحالي، سمعت عمشا نداء «فرقنا»، وكانت في حاجة لبعض الأقمشة الجديدة لمناسبة عائلية، أوقفته وأخذت تتفاوض معه عند الباب، وعندما لاحظت أن الرجل يقف تحت لهيب الشمس رقَّ قلبها، ودعته للدخول في المجبب فأخطأ «فرقنا» الفهم، وترجم الدعوة بغرائزه لا بأخلاقه، من سوء حظه لم تفقد «عمشا» سرعة البديهة التي وسمتها طوال أيام شبابها، بحادثة «فرقنا»، برهنت «عمشا» أن الحكمة التي يكتسبها الإنسان بعد تجارب السنين لا تتعارض أبداً مع سرعة البديهة والمبادرة، ما أن تجرأ المسكين ومدَّ يده ناحية «عمشا» حتى كانت كف «عمشا» أسبق إلى وجهه من يده إلى صدرها، كان المتر في يده، وهو «سيم» بطول متر يقيس به الأقمشة لزبائنه، وقبل أن يستعيد إحساسه بالواقع كانت «عمشا» قد انتزعت السيم من يده وتراجعت قليلاً عنه وضربته على رأسه، ولكنه مال عن مرمى السيم، فجاءت الضربة على كتفه، صرخ واندفع ناحية الباب، ولكن «عمشا» كانت أسبق منه إذ ضربته بين كتفيه، فصرخ صرخة أخرى أخرجت الجيران.

ومن حُسن حظ الرجل أن صادف في تلك اللحظة مرور «أبي عبد المحسن» المؤذن، لم يحتج أبو عبد المحسن إلى تفكير ليعرف ما الذي يجري، فصرخ في «عمشا»: «طالبك إياه يا أم

ناصر.. طالبك إياه هالمرة يا أم ناصر» كان «فرقنا» يضع يديه على قمة رأسه فاستغلت الوضع لكي تنهي المعركة بضربة حاسمة قبل أن تتوقف إكراما لأبي عبد المحسن. فنزلت الضربة بالجهة الحادة من السيم على يد «فرقنا» تلك اليد التي حاولت الاعتداء عليها فتحطمت أصابعه الأربع، فسقطت يده من فوق رأسه بعدما أغمي عليه، فرفسته عدة رفسات لتلقي به خارج بيتها.

وبكل اقتضاب شرحت لأبي عبد المحسن الأسباب فقال: «مقديه يا أم ناصر يستاهل».. كان جيران «عمشا» قد خرجوا من منازلهم ورشوا «فرقنا» بالماء، وعندما استيقظ أفهموه أن العسيلة تتعذره من الآن إلى يوم الدين حفاظاً على ما تبقى له من حياة.

بعد هاتين الحادثتين لم تسجّل أحداث أخرى باسم «عمشا»، وقد فكَّرت كثيراً أن أخبر «عمشا» بما حدث لقِدرها، ولكني وجدت أن تخلي «عمشا» عن العنف الفوضوي لا يعني أنها تخلت عن العنف المشروع، وخشيت أن تكون حادثة القِدر ما زالت راسية في قاع وجدانها العنيف، وأن أكون أنا وابنها ناصر ضحيتين لأحقاد قديمة، فحسب تقديري.. فعمشا يمكن أن تتسامح مع أي شيء إلا مع سارق قدرها.

في ذلك اليوم المشؤوم لاحظت أنا وناصر قطوة جميلة رومية ساقطة في ركية السيل، وقررنا إخراجها، فأحضرنا سطلاً وربطناه

بحبل، ودلدلنا الحبل.. لعل القطوة تقفز فيه فنسحبها إلى الخارج، ولكن القطوة لم تستجب، فتفتق ذهننا عن فكرة جهنمية وهي أن نضع في السطل قطعة لحمة، وقبل أن نتناقش أو نبحث عن السبيل لتحضير اللحمة، قفز ناصر وهو يقول: أبوي اليوم جايب لحم، ولا أعرف ما الذي حدث، فبعد حوالي عشر دقائق عاد ناصر يحمل بين يديه قِدراً ضخماً تتأجج في داخله رائحة «كشنة» وقطعة لحمة تكفي لعرس قطاوة، وليس لقطوة رومية واحدة.

من شدة فرحي لم أسأله كيف جاء باللحمة.. أخذنا اللحمة ووضعناها في السطل ودلدلناه.. ولا تسألوني.. هل أخرجنا القطوة أم لا، أما بالنسبة للقِدر فقد رميناه في الركية، هذا ما جرى لقِدر «عمشا» والله المستعان.

* * *

شارع الخزان

لا أحب أن أذكر اسم الفنان لأسباب متعددة، منها أنه (ربما) ما زال حياً ومعتزل. ومنها أنه من الفنانين القلائل الذين يلجأون إلى أيديهم الفولاذية لفض النزاعات وتسوية الخلافات في وجهات النظر. من باب التأريخ أفكر في أن أعطي اسمه لمكتبة الملك فهد مرفقاً بهذه القصة، شريطة ألا تنشر مقرونة باسمه الصريح إلا بعد مرور مائة سنة.

قبل سنوات طويلة أقام نادي النصر حفلاً بمناسبة فوزه ببطولة من البطولات. وقد وُجِّهت الدعوة لفناننا هذا لإحياء الحفل. كان هو الفنان الرئيسي إلى جانب عدد من الفنانين المبتدئين الذين بدأوا وصلاتهم الفنية تمهيداً لصعود فناننا خشبة المسرح. قدِّر لي أن أندسَّ بين الجماهير لأكون في الصفوف الأمامية عند حافة المسرح. ومن مميِّزات فناننا، كما عرفتُ لاحقاً، أنه إذا بدأ يغني ينسجم مع الأغنية إلى درجة أنه ينسى ما حوله وكأنه في طقس من طقوس اليوغا. كما أنه شديدُ الحساسية تجاه المقاطعات، والتعبير

الجماهيري غير المرشد. لا أعرف من أين جاء بهذه الرؤيا المميّزة. فمن عادة الفنانين في ذلك الزمان الصراخ لتهييج الجماهير.

فالفنان في الماضي إذا رأى أن الجمهور بدأ يهدأ من الرتابة يقطع بشكل مفاجئ انسياب الأغنية، ثم «يخرشهم» بتقاسيم على العود. وإذا أحسَّ بأن العود لا يوقظهم من سُباتهم صكَّهم بموالٍ حجازيٍّ يمزِّق به طبلات الآذان. وإذا لم ينفع معهم الاثنان عاد إلى أحد مقاطع الأغنية التي شعر بأن الجماهير استجابت لها. وإذا لم تنفع هذه الوصفات المجرَّبة يدخل في أغنية ثانية دون أي ترتيب مع الفرقة.

ومن المعروف في ذلك الزمان أن هناك فرقة واحدة تسيطر على السوق تُعرَف بفرقة التليفزيون. تراها في التليفزيون، وفي الحفلات، وأينما يوجد شيء اسمه موسيقى. كل من يهتمُّ بالفن يعرف أن تلك الفرقة كانت على خصومة شديدة مع فناننا.

المهم اندسستُ بين الجماهير المحتشدة، وزاحمتُ حتى ارتفقت بكوعيّ الاثنين على خشبة المسرح. لم يبدأ الحفل الحقيقي. كان هناك فنان صاعد يؤدِّي بعض الوصلات الخفيفة، ثم صعد بعد قليل أحد المتسببين، وأجري بعض الدندنات على العود، ثم انسحب دون أن يحسَّ به أحد. ما أن اقترب فناننا حتى نهضت الجماهير يصيحون ويزعقون ويصفرون، «وحيته من كل

قلبها». انحنى باسماً، وحيًا الجماهير.. «في ذلك الزمان كان الفنان ينحني لتحية جماهيره». وبعد أن أنهى التحية التفت إلى الفرقة.

لم أسمع ما قاله لهم، ولكنني لا حظت أنه بعد أعاد وجهه ناحية الجماهير كان أعضاء الفرقة يتغامزون. تنحنح «من عادة فناني زمان النحنحة». الله أعلم تقليداً لمحمد عبد الوهاب. ثم بدأ يدوزن العود. مرة يضع رأسه على العود ليسمع أدق النغمات، ومرة يرفع رأسه ويشد على الوتر، ومرة يلتفت إلى الفرقة. وفي أحيان متفرقة يضع قبضة يده على فمه ويتنحنح نحنحات صغيرة متفرقة. من الواضح أنها تعبِّر عن التوتر أكثر من مجرد تسليك الحلق.

اختلط «دوزان» العود مع الهمسات الموسيقية التي تنبعث من الآلات الموسيقية جراء التعابث الرقيق لأصابع أعضاء الفرقة على الآلات التي بين أيديهم. كان كل شيء في غاية الترقب. رغم أن الجماهير هي جماهير كورة ومن المتوقع أن تنفجر في أي لحظة، بصرخات أو هتافات أو حتى مضاربات إلا أن التعابث الخافت بالآلات الموسيقية جعل الناس في حالة ترقب انتشائي، كمن يدخل غرفة اختفت منها امرأة غارقة في العطور.

أخيراً التفت إلى الفرقة، وقال كلمة سريعة، ثم عاد إلينا وهزَّ رأسه فصدحت الموسيقى. كانت اللحظات الواقعة بين بداية الموسيقى وبين ردِّ فعلِ الجمهور أقل من أن تُذكر، ولكنها بدت

كدهرٍ مديد، حيث تحسَّس الجمهور في تلك اللحظات بهجة الإصغاء والترقب التي تنتجها نشوة الموسيقى التي تُصنع أمامك.

كان يمكن للجمهور أن يصمت أكثر، ولكن أحد المتربين في مدرجات الكورة صاح: عاش أبو مسعود. دون أيِّ سبب يدعو لذلك، انفجرت عندها الحناجر، اختلطت كلمات الترحيب بالتصفيق بالصفافير. ولأن الجمهور الحاضر جمهور كرة في الأساس تقاذفت التعليقات المتنوِّعة بما فيها التعليقات الثقيلة. إلا أن الموسيقى راحت تتخلل هذا الهواء المليء بالأصوات، وتتحرك في فراغات الصراخ كالأكسجين. كما شدَّد أعضاء الفرقة موقفهم الموالي للفن، وضغطوا على آلاتهم فانتصرت الموسيقى أخيراً، وراحت تملأ أي فراغ يتركه الجمهور في الهواء. فاستقر الوضع. فدخلنا في أجواء الفن وحلَّت النشوة محل التوتر.

ركَّزتُ كوعي على المنصة، ووضعت جماع وجهي بين كفيَّ، فالليل طويل يحتاج إلى وضعية مريحة قدر الإمكان. من حُسن حظي أن المنصة لم تكن عالية. تصل إلى مستوى خِصري، مما أتاح لي أن أتأمل في حركات قدمي الفنان. صُدمتُ عندما لاحظت أنه يلبس نِعالاً قديمة، وأظافر قدميه لم تقلم منذ زمنٍ بعيد. ويبدو أن هناك كدمة مزمنة عند التقاء الساق مع القدم. قدماه بصفة عامة غير مُستوِيَتين، تحس بأنهما قدما شايب، لا تليقان بأن تحملا على

كاهلهما فناناً وصلت جماهيريته إلى الطائف وجدة، وأغانيه تُطبع في استديوهات أثينا.

قدِّر له أن يبرز في الفترة التي بدأت الأسطوانات الشفافة الملونة تغزو الأسواق. والبكمات تفرض وجودها حتى على المنازل المحافظة. وأظهر الناس ميلاً غير مسبوق للموسيقى، فكانوا على استعداد أن يشتروا الأسطوانة بأي سعر، حتى بلغ سعر بعض الأغاني مثل أغنية «أبكي على ما جرى لي يا أهلي» أكثر من مائتين وخمسين ريالاً، مع أن راتب موظف متوسط لا يصل إلى خمسمائة ريال. لم يصل سعر أسطوانات فناننا أكثر من عشرة ريالات، ولكن عشرة ريالات كانت مبلغاً مُجزياً لفنان يقف على الدرجة الأولى من سلم المجد.

صار اسمه متداولاً في سوق الأسطوانات في حراج ابن قاسم، وأخذ أصحاب التكاسي يؤمنون أسطواناته في تكاسيهم كسباً لجماهيره الواعدة. ولو أصغيت لجدال المراهقين والنساء لوجدت من يرشِّحه ليصبح الفنان الأول في المنطقة الوسطى، متخطياً سعد إبراهيم، وسلامة العبد الله، وسالم الحويل، وفرج الطلال، وغيرهم..وضع قدمه القوية في طريق الفن الطويل دون اعتبار لشكلها، أو نظافتها كما شاهدتها على المسرح.

بلغنا منتصف الأغنية، وكل شيء كان على ما يُرام. فالانتقال

من «كوبليه» إلى آخر كان سَلساً لا يمكن الإحساس به، لولا هتافات الجماهير المتعوِّدة على مثل هذه الحفلات الحية. لكن شيئاً ما بدأ يحدث ولم أتبيَّنه في البداية. بدأتُ أشعر من حركة قدمَي الفنان أن هناك شيئاً يستوجب القلق. فأصابع قدميه تتحرك باضطراب وتوجُّس، فرفعتُ رأسي ونظرت في عينيه، فعرفت أن هناك مشكلة. خصوصاً أن الجمهور بدأ يفقد إحساسه بالتدفق، وأخيراً انتهت الأغنية الأولى على خير.

أنزل قدمَهُ من الصندوق الذي كانت تقف عليه، حيث يشكِّل فخذه منصة أفقية يستند عليها العود. التفت بكامل جذعه ناحية الفِرقة وهو يدلدل عُوده ذات اليمين وذات الشمال، مما يُوحي بجدية النقاشات التي تدور بينه وبين أعضاء الفِرقة. ثم لمحتُ أنه يرفع سبَّابته التي تتخللها ريشة العزف البلاستيكية بصورة أشبه بالتهديد.. عاد مرة أخرى إلى الجمهور بعد أن أتمَّ تسوية الأمر، أو هكذا خُيِّل لي، وعلى فمه ابتسامة لم أثق ببراءتها، حيث جاءت مختلفة عن ابتساماته العفوية التي وزَّعها في بداية الحفل.

لم أكن أنا وحدي من لاحظ ذلك. كان الجمهور قد أحسَّ بشيء ما غير طبيعي يربك التواصل بين الفِرقة وبين أداء الفنان. بل إن هناك نفراً من الجمهور أصدر أصواتاً شبيهة بالضحك بصوتٍ عالٍ في أجواء إبداع لا تحتمل الضحك. علَّمونا في سنوات

التكوين الأولى أن الغناء يولد البُكاء لا الضحك، ليحدث في النفس العطوفة ذلك الحُزن الجميل..

شعرتُ بالخِدر من الدوزان، ومن الدندنات، والإصغاء الحذر. عرفتُ الأغنية التي سوف يصدحُ بها. فأغنية «يا أبو وجنة حمراء» كانت كَرته لدخول نادي الكبار. صاحت الجماهير. رفع رأسه عن العود، وألقى عليهم نظرة حُبٍّ وتعبير امتنان. وعاد مرة أخرى إلى الدوزان. ثم عكف جذعه النحيل صوب الفرقة وأعطاها إشارة البدء. ردحت الفِرقة، وتناغمت الكمانات مع صوت الناي مع ضربات الإيقاع الصاخب على خلفية همسات العود الذي يتقنه فناننا ببراعة. شاعت البهجة، وانتشر السرور، وبدأ التصفيق المنتظم، وكأننا في ملعب كورة.. أليسوا جماهير كورة في النهاية.

مضى فناننا في مجاملته للجماهير والتفتَ إلى الفرقة مرة أخرى ليؤجل البدء في الأغنية بسبب المقاطعات. فعادت الفرقة إلى عزف المُقدمة من جديد. المشكلة أنه كان في مُقدِّمة الأغنية مقطع صغير يبرز فيه دور الإيقاع بشكل قوي. وهذا بحد ذاته كافٍ لتهييج الجماهير؛ لأن معظمهم كما بدا لي قادمون من خلفيات الزيران والسامري. فما إن يخبط المروس مسفر (أبو مرزوق) على الطبل حتى ينفجر الزعيق وتدوِّي جنبات المبنى، وينتفض شارع الخزان عن بكرة أبيه.

التفت مرَّة أخرى إلى الفرقة.. فمن الواضح أنه طلب منهم شيئاً لم أتبيَّنه. يبدو أن الجماهير فهموا الإعادات الكثيرة بطريقةٍ خاطئة. ربما قدَّروا أن الفنان يجاملهم بالإعادة فازداد صراخهم. لم أعد أحتاج لمراقبة أظافر قدميه الطويلة، واهتزازات رجله لأعرف أن مشكلة ما سوف تحدث؛ لأني بدأت أرى أنه فقد القدرة على الابتسام. يعضُّ على براطمه كأنه يتوعَّد، أو كأنه يحبس شيئاً في بطنه من مسهل تناوله هذا المساء.

اتضح لي أن هناك صراعاً خفياً بين الفنان وبين الفرقة. وبعد أربع أو خمس إعادات.. صدح صوت فناننا، وصرخت الجماهير تحيّيه.. فجأة دون مُقدِّمة كتم فناننا سيل الكلمات المتدفق من فمه، وأعاد رأسه إلى العود كأنه يدوزنه. في الوقت الذي أعادت فيه الفرقة المُقدِّمة مرة أخرى.

أخيراً فقدت الجماهير شغفها بالمقدِّمة بعد أن أُعيدت مراتٍ كثيرة، فصمتت هذه المرة.. لم تحيِّ حتى المروس مسفر.. شعر فناننا بأنه الآن في مأمنٍ من إعادة المقدِّمة مرة أخرى. فرفع رأسه وقرَّب خشته من المايكروفون، وفي اللحظة التي كان سيُطلق فيها الكلمة الأولى، فاجأته الفِرقة بإعادة المقدِّمة مرة أخرى.

لا أعرف كم من الجماهير عرف أن هناك مؤامرة من الفِرقة. لا يمكن أن أكون أنا الوحيد الذي أحسُّ بذلك. فما يجري الآن هو

امتداد لعلاقة فناننا مع العالم. رغم أنه بطبعه طيب وحبيب ومتسامح، إلا أن خصومه لا يعدون ولا يحصون بسبب قبضته الفولاذية التي يلجأ إليها لفض المنازعات. لا يمكن تخيُّل الموقف الذي يقفه فناننا. فهذه الحفلة هي واحدة من حفلاته الأولى التي يلتقي فيها مع جماهيره وجهاً لوجه. وأي فشل سوف ينعكس على مسيرته الإبداعية ومستقبله الفني، فنجاح مبيعات الأسطوانات يأتي تالياً للنجاح في الحفلات والأعراس.

الفرقة كما هو واضح قرَّرت تدميره. فالتفت مرة أخرى إليها بتصميم من لا يُريد أي تسوية أو مصالحة، فكبرياؤه لا يسمح له بالتنازل ليخرج من هذا الفخ، ثمّ يعالج القضية برُمَّتها لاحقاً.

فقدت الجماهير صبرها واهتمامها، ورأت أن هناك خللاً يجب معالجته قبل استئناف الحفل. فالتفت كل مشجِّعٍ إلى زميله أو جاره ودخل معه في نقاش حامٍ عن الدوري. توقف الغناء نهائياً واستدار فناننا إلى الفرقة وهو في غاية الغضب. وفي المقابل لا يبدو على أعضاء الفرقة أي توتر. تلاحظ الابتسامات تملأ الوجوه. وكل واحدٍ يُسار صاحبه وكأن شيئاً لم يحدث. لم أسمع ما قاله الفنان لأعضاء الفرقة بسبب الضجَّة وبُعدي عن مجريات الأمور، فركضت واندسستُ داخل المنصة. ووقفتُ خلف الفرقة تماماً كأني واحد منهم. وأصبحت مرة أخرى في مواجهة الفنان الغاضب. فسمعتُ الفنان يقول:

من هو الحمار اللي يسوي كذا؟؟.. وفوجئت بأسلوب التسوية، كما فوجئت أكثر بأن كلمة حمار هي جزء من قاموس الفنانين.. لم يُبدِ أيٌّ من أعضاء الفرقة أيَّ ردة فِعل. كأن الأمر لا يعنيهم. فقال بغضبٍ مكتوم: ما فيكم واحد رجَّال؟ ما فيكم واحد «كفو» يواجه الرجال؟! من الواضح أنه يُريد أن ينتقم. ولا يمكن أن ينتقم من عشرة أشخاص دفعة واحدة. يريد واحداً من أعضاء الفرقة يقدِّم نفسه ككبش فداء. وأعضاء الفرقة يعرفون هذا حق المعرفة. لم يجد من يتبرع ليبرِّد كبده فيه، فأعاد وجهه إلى الجماهير بحثاً عن مصالحة زائفة. ولكنه فجأة سمع أحدهم يضع لسانه بين شفتيه ويطلق أصواتاً مقززة. فعاد مرة أخرى إلى الفرقة وقد أخذ منه الغضب كل مأخذ. وقال: من هو هذا اللي يُصدر هالأصوات القذرة من فمه.. ولا من.....؟!

لم يُبدِ أيٌّ من أعضاء الفرقة أي ردة فعل.. تركوه يقول ما يريد. فقال: هذه الأصوات ما يُصدرها إلا ناس من أمثالكم خوّافين ذرقان. حاول استفزازهم بكل العبارات الجارحة دون جدوى. لم يجد من يردّ عليه. ورغم أنه ينتفض من الغضب كان الجمهور على باله. فعاد إلى الجماهير ورفع يديه محيياً، وقال بصوتٍ واحدٍ في ضربة معلم ذكية: يعيش فريق النصر، فهو يعرف أن معظم الجماهير هنا هم جماهير النصر.

قرَّر تخديرهم بعبارات المديح المنافقة حتى يسوِّي أمره مع

الفرقة. فزعقت الجماهير تحيّيه، وتطالبه بحب وإخلاص أن يعود إلى الغناء، فوعدهم بذلك وعاد إلى الفرقة بدعم جماهيري واضح.. فتناول أعضاء الفرقة آلاتهم إيذاناً بالعودة مرة أخرى إلى العمل، فاطمأن فناننا إلى حُسن تصرُّفه الأخير، حيث كسب الجماهير إلى صفه. عاد إلى منصة الإبداع، ووضع العود في حضنه، وأخذ يُعدّل المايكروفون في صورة مَن يؤكد أن كل شيء تمت تسويته، ولكن بشكل مفاجئ عزفت الفرقة مُقدمة لأغنية أخرى ليست من أغاني فناننا. فالتفت كالثور الهائج وقال: يا حيوانات!!

سمعت الجماهير الكلمة.. كان فناننا قد قالها بعد أن فتح المايك، فأضحت القضية خارج التهامس الغاضب بين الفنان وبين الفرقة..

لم يكن مسفر المروس متضامناً مع الفرقة، فظن أنه غير معنيٌ بالألقاب التي يوزعها، فظل يغرد بمرواسه خارج الإطار الذي تدور فيه الأحداث. يستغل أي انقطاع أو تراجع ليرفع من خبطات المرواس بشكل أثار حفيظة الفنان وشكوكه. ولكن قبل المُضيّ في سرد أحداث ما جرى، علينا أن نعرض قليلاً من الوقائع الفنية في ذلك الزمان حتى نعرف حقيقة فناننا، وكيف كان صعوده.

عندما أنهت شركة «أبكو» مشروع التليفون الآلي، وزرعت

أسلاكه في معظم حيطان الرياض وبيوته، تحوّلت خدمات الشباب من الدوران في «السكيك» إلى عزلة التقنية الجديدة، الأمر الذي نقل الحُب من التحرُك على الأقدام إلى التحرُك بذبذبات كهربائية.. من عصر امرئ القيس إلى عصر ماركوني. فأصيب الفنانون الكبار بنوع من الشلل الإبداعي.. أربكهم الحب بتقنياته الجديدة فـ «الرمال الحُمر»، «يا شيلة حطي».. وحتى الأغنية التكنولوجية الأولى التي صدح بها الفنان «صليح الفرج» التي تنطوي على إشارات تقنية صريحة «عقب الكدالك وتشكيل الفروت.. معد عجة السوق قمت أمشي قدم».. حتى هذه الأغنية أصبحت جزءاً من ماضٍ يكاد يختنق في دائرة النسيان.. وتطلَّب الأمر فنانين يتماشون مع العصر الحديث..

كانت تلك هي الفترة التي قفز فيها فناننا إلى الصفوف الأولى متخطياً أقرانه، ومنهم أكبر منه سِناً. كان شاباً صغيراً يتفهَّم معنى الحب الإلكتروني الذي فتح أفقاً جديداً في الحُب فأنتج ثلاث أغانٍ جديدة تدور حول العلاقات الجديدة. بدأها بأغنية «ألوه من ذا بيته» فأفاق العالم من ذهول الحب القديم ليجد نفسه وجهاً لوجه أمام أيامه الجديدة التي يجب أن يعيشها.

وبالكاد مضغ الشباب الصغير هذه الأغنية المميَّزة حتى أردفها فناننا بأغنية أكثر تجاوزاً تقول مقدِّمتها: «ليش خطكم مشغول يا شين عواديكم».. فجاءت هذه الأغنية نوعاً من التوازن العاطفي

لتسيير أمور الحُبِّ المزعوم بهدوءٍ نحو قدره المحتوم، فظن الشباب أن الأمر سيمضي بهذا المستوى المتباطئ من السرعة، وسوف يتلكأ عند هذا الحد من حدود الغرام، ولكن فناننا لم يسرّه هذا الدفع المسالم للحب.. ففجر أغنية «رقمكم معد أبيه دفنته في قلبي ونسيته».. فكانت القطيعة مع فناني عصر ما قبل التليفون، وتعبيراً دقيقاً عن حمى الحب الجديد التي تجتاح الشباب.. كل شاب شعُر بأن هذه الأغنية هي إعادة بناء لواعج الحُب المبعثرة في فؤاده.

طبعت هذه الأغنية أكثر من مرة، ويمكن أن تسمعها حتى عند الخبَّازين والحرفيَّة وبائعي العلف في نهاية الأيام القديمة. كانت موسيقاها تزخر للمرة الأولى بآلات غير مألوفة مثل الاوكورديون والأورج، والله أعلم آلات أخرى لم نسمع بها من قبل، رغم أن الأغنية كلها مجرد «كوبليه» واحد راقص يصلح للجلسات على العود إذا توافر مروس من مستوى مسفر أبو مرزوق. وأبو مرزوق يعرف هذه الحقيقة. وهذا ما جعله غير متضامن مع الفرقة على إفساد حفل فناننا، بل يتداخل أيضاً مع جمال الأغنية عندما يُعيد ويكرِّر المقطع الأول، الذي يفترض حضور المرواس بشكل لا يقاوم.

يضطرُ أبو مرزوق عندما يأخذ الدور أن يضع طرف غترته في فمه حتى لا يُدمي برطمه أو لسانه من العضّ الشديد. كان ينتظر

الإذن بالإعادة من رئيس الفرقة كما هو متفق. فكلما تقدَّم فناننا، ومطَّ رقبته، وفتح فمه ليقول كلمته الملحَّنة يكون أبو مرزوق جاهزاً ليدخل عليه حسب توجيهات رئيس الفرقة وإشاراته.

وفي نفس الوقت استمرأ أبو مرزوق صراخ الجماهير المعجَبة فانفصل عن فناننا وراح يدخل بمرواسه بدون تنسيق حتى مع الفرقة نفسها. فأحسَّ فناننا بأن أفضل كبش فداء للانتقام هو أبو مرزوق نفسه. ذاب أبو مرزوق في هيام الجماهير الزاعقة غير متحسِّس للخطر الداهم الذي يتهدَّده. كان يُنصت إلى حفنة من الجماهير تطالبه بالإعادة. فأقام حفلته المجتزأة على حساب الحفلة الكبيرة.

العود لا يكفي، فهو مجرد غلالة رقيقة من «الأبلاكاش»، وإذا نزل على الرأس فسوف ينخفس، لعله يروِّع، ولكنه لا يؤذي. بينما المرواس مصنوع من الطين الصلب، وله حافة ثخينة عند مقدِّمته المربوطة بالجلد، لا يمكن أن تنكسَّر قبل أن تكسر الرأس الذي تقع عليه. فحسب محضر الشرطة الذي تناقلت الشائعات محتوياته أن الجمجمة انشعرت قبل أن ينكسر المرواس. ومن حُسن حظ «أبو مرزوق» أنه سقط من الضربة الثانية عن كرسيه، وجاءت الضربات الأخرى واحدة في وركه، والثانية على ساقه، وعدد لا يُحصى في أنحاء متفرِّقة من الجسد قبل أن يهُبَّ الجمهور ويفكّ «أبو مرزوق» من عذاباته.

كلٌّ شيء توقعته إلا أن يكون أبو مرزوق هو الهدف الأول. بعد أن التفت فناننا إلى الفرقة وشتمها بأقذع الألفاظ. تخيَّلت أن الحفل سينتهي بالفشل أو تتدخل إدارة النادي وتنادي على الفنان الرديف. ولكن فناننا كان أسرع من أي تصرُّف إداري بناء. فانقض على «أبو مرزوق»، وانتزع من يده المرواس، وقبضه من طرفه الفارغ، ونزل به على رأس «أبو مرزوق». ومن الضربة الأولى انفجر الدم.

المشكلة أن أعضاء الفرقة هم الأقرب لفضِّ الاشتباك، ولكن أيّاً منهم لم يتدخل؛ لأنه يعرف أن الضربات الموجَّهة إلى جمجمة «أبو مرزوق» هي في الواقع موجَّهة للجميع.. وأيٌّ منهم يتدخل فسوف يسحب فناننا من «ابو مرزوق» إلى نفسه. فاكتسب فناننا عدة دقائق ثمينة لينتقم فيها من «أبو مرزوق» قبل أن يقفز الجمهور إلى المنصة وينتزع المرواس، ويخلص «أبو مرزوق» من موتٍ عاصف.

دفع الجمهور فناننا خارج المنصة، وبعد قليل جاءت الشرطة، ووضعت الكلبشات في يده. كما نقل «أبو مرزوق» في أحد التكاسي مغمى عليه إلى مستشفى الشميسي. وتفرَّقت الجماهير على وعد من رئيس النادي الذي صعد إلى المنصة وأعلن نهاية الحفل، ووعد الجماهير بتسوية الأمر، وإحضار فنان جديد، بعد أن تمنى لمروسنا الكبير الشفاء العاجل.

* * *

كيف تصبح مديراً ناجحاً؟

كل شيء يمكن أن أنجح فيه إلا أن أكون مديراً على بشر. هذا ما تعلمته في حياتي العملية المديدة. كفلني الوصول إلى هذه الحقيقة حوالي عشرين عاماً، والاعتراف بها أمام نفسي استغرقني حوالي خمس سنوات، والاعتراف بها أمام الآخرين حوالي خمس سنوات أخرى. ولكن ما هي الكلفة التي دفعتها الإدارة التي عملت بها ثلاثين سنةً كمدير؟.. الله وحده يعلم.

بهذا بدأ صديقي المتقاعد سلسلة اعترافاته.. يقول: لم أكن في يوم من الأيام مؤهلاً أن أقود غنماً فضلا عن بشر. ولكن الصراعات والطموحات هي التي تحدِّد مستقبل الإنسان لا القدرات والإمكانيات. كان يمكن أن أكون شيئاً مُهماً في المجتمع. كان يمكن أن أكون طياراً ماهراً، أو فناناً كبيراً، أو كاتباً عظيماً، أو عالماً، أو أي شيء إلا العمل الذي صرفتُ فيه حياتي.

على حدِّ كلامه.. بدأ حياته العملية بعد أن حصل على الشهادة الثانوية «قسم علمي» بتقدير جيد جداً. هذا الكلام في السبعينيات الميلادية، في الفترة التي كان الموظف السعودي جوهرة نادرة.

التحق بواحدةٍ من تلك الوزارات التي يتخمَّر فيها الموظف و«يندوش» ويتحوَّل بعد فترة وجيزة إلى شيء يُشبه المهمل وليس بمهمل، وإلى شيء شبه «المرجوج» وليس بمرجوج، وإلى شيء يشبه الإنسان المنتج وليس بمنتج، وإلى شيء يُشبه الرجل المنظم وليس بمنظم.. يعني العمل في الوزارات التقليدية التي لا ينتبه الإنسان لضياعه إلا بعد أن يتقاعد ويتفكَّر في السنوات التي قضاها فيها، لا يعرف بالضبط ماذا فعل.. هل أنتج أما لا؟ هل أسهم في شيء أم لا؟ هل كان يعيش تلك الحياة أم كان يحلم بها؟

والأسوأ من هذا أن راتبه كان كالسراب.. كان يعتقد أنه يتحسَّن وهو في الواقع يزداد سوءاً. يرتفع حوالي ثلاثمائة ريال في السنة، والأسعار تزداد ستمائة في السنة. ازداد الرقم، وتدني مستواه المعيشي. ولكنه لم يعرف هذا إلا بعد أ، أحيل للتقاعد، واكتشف أنه لا يستطيع أن يسمكر أسنانه.

كان عليه في شبابه أن يُقلل من الضحك حتى لا يفقد هيبته أمام موظفيه، فأخفى أسنانه، واليوم أخذ يقلل من الضحك حتى لا تظهر أسنانه الخربة. على أمل أن يصله «السرا» في مركز الأسنان بمستشفى الشميسي، ليعاود الضحك الذي تركه عندما كان طالباً في الثانوية.

إن أفضل ما يملك هو هذه التجربة التي تحوَّلت إلى كومةٍ من

النصائح التي لا يريد أن يسمعها منه أحد.. وصل إلى منصب مدير إدارة، وهي الخطوة الحاسمة للانتقال إلى مدير عام، والإحساس بأنه أصبح من كبار الموظفين، على الأقل أمام زوجته وأقاربه.. لكن الظروف لم تسمح له بالتحرُّك أكثر من مدير إدارة، ولا يريد أن يضيف السبب إلى مذكراته لكي لا يتهم بالوشاية وإفشاء أسرار العمل؛ لأن منصب مدير عام يحتاج إلى قوة غير قوة الدفع الذاتية.. يحتاج إلى يدٍ خفيَّة من قريب أو عزيز. وهو هنا يتكلم بصفة عامة وليس عن تجربته، أي يقدِّم نظرية عامة تنطبق على الجميع في الوصول إلى مدير عام. ويضع بين قوسين قوله (ترى ما أتكلم عن نفسي.. مفهوم؟).

التعويذة الأساسية التي ينطلق منها العمل في الوزارة التي عمل فيها طوال عمره هي (التوفيق). لا توجد في تلك الوزارة كلمات مثل (نجاح) (قدرة) (مواهب) (تدريب).. كل شيء فيها يقوم على التوفيق.. (فلان توفق، وفلان الآخر ما توفق).. وهناك كلمة أخرى رديفة لهذه وتفسِّرها، وهي كلمة (حظه) وكلهم «هو وزملاؤه» مشوا في السلم الوظيفي، إما بالحظ أو بالتوفيق.. سعيد أخو مبارك.. على فكرة هذا مثله المفضل، وليس من عندي. وسوف يتكرَّر كثيراً في مذكراته؛ لأن الحياة في نظره أصبحت (سعيد أخو مبارك).

بعد سنوات من تعلم الشيء نفسه عشرات المرات أصبح مديراً

بكل المقاييس التي تتطلبها وظيفته. الساعة السابعة والنصف بالضبط يكون على مكتبه، وفي تمام الساعة الثانية والنصف يقفل «ماصته» ومكتبه.. لا يغادر مبنى الوزارة دون أن تكون الجرائد تحت إبطه. تأكد من أنه مدير بصفة نهائية عندما قررت إدارة العلاقات العامة أن تخصِّص له مجموعة كاملة من الجرائد بما في ذلك جريدة «أم القرى».. لا يقرأ كل الجرائد، ولكنه يقتنيها.. من الصعب أن يفهم الفرق بين اقتناء الجرائد، وبين قراءتها مَن هو خارج ثقافة العمل الحكومي.. يأخذها إلى البيت، ويقلبها قبل الغداء، ويقلبها قليلاً بعد الغداء، ثم يتثاءب، فيعِدُ نفسه بقراءتها كاملة بعد العصر، ولكنه لم يفِ بوعده هذا إلى أن فوجئ بيوم التقاعد. لا يعرف من الذي سنَّ سُنَّة الجرائد في الدوائر الحكومية.

بعد أن رُقِّي إلى رئيس قسم، وبدأ مشوار قيادة البشر، تذكَّر أن كل المديرين يأخذون الجرائد تحت آباطهم عند الانصراف.. فقاتل ووسَّط وتحايل ليأخذ نصيبه منها. خيَّروه في البداية بين جريدتين، ثم أعطوه ثلاثاً، وهكذا تزايد عدد الجرائد حتى اكتمل نصيبه منها. عندما تقاعد لم يأسف أن الجرائد انقطعت من حياته؛ لأنها لم تكن في حياته سوى عدة لوظيفة لن يعود إليها أبداً.

أجمل أيامه في الوظيفة أيام الطائف. عندما يذهب مع مكتب معالي الوزير إلى الطائف كان يترك عائلته في الرياض. ربما كانت تلك الأيام هي سبب بقائه على قيد الحياة متفتح الآمال والأماني..

كانت خروجاً ثورياً على نواميس حياته اليومية. عزوبية وطبخاً وشوياً، وخروجاً إلى القهاوي في الردف، وضرب فول وتميس في برحة ابن عباس.. كما شاهد أول فيلم سينمائي في حياته في أحد النوادي الرياضية هناك. لا يعيده إلى نمط حياته العادية إلا صباح العمل، وموظف في سِنّه تقريباً تكرَّر وجهه حتى شاخا معاً. لو كانت كل الحياة كما خبرها في الطائف لاختلف أمره في هذه الدنيا.. ولكن الخيرة فيما اختاره الله.

بقيت فكرة الزواج من امرأة ثانية تراوده سنوات كثيرة إلى أن داهمه مرض السكر، فأقلع عن الفكرة من الناحية العملية خشية مواجهة امرأتين بقدرات سيهدمها السكر لا محالة.. ولكن هذه الأمنية، وهي أثقل الأماني الرازحة في قلبه، بقيت بين الموت والحياة تزاحم الأحلام الكثيرة التي لم تتحقق أبداً. تنهض من سُباتها متثاقلة كلما شاهد امرأة شابة تعبر الطريق.

كان يحب زوجته مثلما أحب الأشياء التي لا يستطيع أن يستغني عنها. كفل هذا الحب لزواجه الاستمرار والديمومة.. حيث أسهم الروتين المُمل الذي تعلمه في الوظيفة في جعل بيته يتميَّز بالثبات والهدوء العائلي.. أنجب أبناءه واحداً إثر الآخر بهدوء دون مشاكل، كأنهم جاءوا إلى هذه الدنيا تأكيداً لحياته الوظيفية.. كبروا، ثمَّ تزوَّجت البنت الأولى، ولحقت بها الثانية، ويفكر في تزويج الولد الكبير قريباً، ولا يعرف لماذا هو مستعجل على هذه

الترتيبات العائلية.. ولكن وجوده متقاعداً بدون مواهب أو اهتمامات يقلقه كثيراً.

(إذا لم يكن لك شغل ولا يستفاد من وجودك ارحل).. صرخ بهذه العبارة في وجه أحد موظفيه. قالها في لحظة تجلٍ فلسفية في زمن الاستغراق الكامل، عندما كان في منتصف العمر.. بدأ يتذكَّرها بعد التقاعد، ولكنه يتذكرها أكثر كلما جلس وحده أو شاهد أبنه الصغير «راشد» الذي التحق قبل سنتين بإحدى الوزارات بشهادة الثانوية العامة «علمي» بتقدير عام جيد جداً.

* * *

مجلة اليمامة

أول ما طحتُ في قراءة الجرائد كنت طالباً في المرحلة المتوسطة، لا أتذكَّر بالضبط من طيَّحني فيها، أو على الأقل من أرشدني إلى قيمتها. فبيتنا لم يكن يعرف القراءة والكتابة. من الصعب ملاحقة منعطفات تغيُّر الوعي، ما أتذكره بوضوح هو أن أحد جيراننا كان يتابع مجلة اليمامة، وقد حصلت على نُسخ كثيرة منها مكوَّمة في فتحة إحدى نوافذ البيت الذي رحلوا عنه.. مجموعة إصدار سنة كاملة، كنت أظن أنني قد حصلت على ثروة لا تقدَّر بثمن، لم أكن أميّز بين الجرائد والكتب، كانت متساوية، حسب ظني القديم، في إنتاج العِلم والمعرفة والثقافة الرفيعة، سُررت بالثروة أيَّما سرور، وحملتها إلى بيتنا على دفعتين.. كان الله في عوني.. فقد قررت أن أقرأها كلها.

لم أكن أعرف أن الجريدة أو المجلة مربوطة بالزمان. لكل يوم جريدته، وتنتهي صلاحيتها.. ضيَّعت يوماً كاملاً أنظمها وأصنّفها حسب قدرتي على فهم المواضيع، فالفن مع الفن، والأدب مع الأدب، والأخبار مع الأخبار. دون أدنى احترام لتاريخ الصدور،

أقرأ العناوين البارزة، وأتفحص المواضيع. كان معظمها أشبه بالطلاسم. لا صلة لها بالعلوم التي أرسيت في دماغي.

كان هذا الاكتشاف كافياً لأن أتخلَّى عن «ميكي وسمير» و«العم بطوط»، وبقية مجلات الأطفال التي تأتي في مجلدات، وأنغمس في عالم بلا ألوان، حروف متراصَّة على صفحة كبيرة كاملة لا توفر سوى صورة لكاتب المقال معلقة في أحد أركان الصفحة، لا تشجِّع شكلاً أو مضموناً على التأمل فيها.

لم تعُد الصورة سيِّدة الموقف.. أذِن عالم الصورة الملونة بالرحيل من حياتي الثقافية. كانت لدي غرفة خاصة وسرير، هل تصدق ذلك؟ ليس لدي الوقت الآن لأن أشرح لك كيف حدث هذا. أخذت أتناول المجلة، وأستلقي على السرير، وأنطلق في القراءة لا ألوي على شيء. كنت متعوِّداً على قراءة الكتب «المدرسية والقصص»، ومجلدات «ميكي» و«سمير» على السرير لسهولة الإمساك بها وتقليبها.. ولكن مجلة «اليمامة» سبَّبت لي مشكلة. عليَّ أن أرفع يديَّ على مداها إذا أردت أن أقرأها وأنا على السرير.

كانت «اليمامة» تأتي في صورة جريدة من الحجم الصغير. لم أخبر أحداً بموقفي من شكل الجريدة. كرهت شكلها. لماذا تُطبع على ورق كبير وقابل للتبعثر؟ لماذا لا تطبع على ورق بصورة

كتاب، وفي أسوأ الأحوال في صورة مجلة، احتفظت بهذا الرأي لنفسي لكيلا اتهم بالجهل.

حتى الآن وأنا غير راضٍ عن شكل الجريدة.. لماذا لا تُطبع في صورة مجلة.. لا يستفيد من شكل الجرائد الحالي سوى العزوبية.. حيث تنتهي إلى سفرة.

عندما بدأت القراءة الفعلية بدا أن الأمر فيه سِرٌّ عجيب.. فالجمل في الجريدة غير متضافرة. ما أن تبدأ الجملة حتى تنتهي لتبدأ جملة جديدة، وتنتهي بالسرعة نفسها.

لا رابط موضوعياً بين الجملة وبين التي تليها. وأحياناً ألاحظ أن الجملة تتوقف بحرف جر أو تبدأ بحرف جر. كما لم أفهم لماذا تبعد كل جملة عن الأخرى حوالي سم.

مرَّ أسبوع لم أفهم شيئاً أقدر أن أتباهى به.. فأحسست بالخجل من ذكائي. كانت مجلدات «ميكي» و«سمير» تجوس تحت سريري تطالبني بالعودة مرة أخرى إلى الثقافة الملوّنة. ولكني كنت حينها قد تزوَّدت بكثير من الأمثال التي تربط العلم بالتعب والسهر، والجثو على الركب ليس بينها التسدح والتبطح على السرير. فانتقلت من القراءة على السرير إلى القراءة على الأرض جثوا على الركب كما أرادوا.. ولكن حال الغباء بقيت على حالها..

كِدت أيأس من قراءة الجرائد لولا بصيص أمل. فأسماء الكُتاب

ناصر ومحمد وعبد الله. صحيح أن الكلام كبير وقلايع، لكن هذا ابن فلان وهذا ابن فلان الآخر، لا يمكن أن أتصوَّر أن يكتبوا شيئاً لا أستطيع فهمه. إذاً هناك شروط عليَّ توفيرها حتى أكون مثقفاً.

أمضيتُ ثلاثة أسابيع أفكُّ رموز وطلاسم الجمل المتقافزة والمتضاربة التي حوتها مجلة «اليمامة». إلى أن عرفت في النهاية أن الجريدة تُقرأ بشكل أعمدة، وليست كالكتاب صُمّم ليُقرأ سطرا بعد سطر.. اكتشفتُ أنني كنت أقرأ بشكل أفقي كما علمونا في المدرسة. فبدت الجمل غير منطقية. ولكني لم أتبيَّن أن الجريدة لا تشبه الكتاب في أي شيء إلا بعد أشهر عندما أصبحت قارئاً متابعاً لما يُكتب في «اليمامة» وفي جرائد أخرى.. وأهم شيء توصَّلت إليه أن الجريدة يعبِّئها الناس كلهم، والكتاب يؤلفه شخص واحد.

الصعوبة التي اكتنفت قراءاتي الأولى للجريدة زوَّدتني بدرس من أعظم الدروس. إذا لم تفهم ما تقرأه فليس بالضرورة أن تكون المشكلة في عقلك أو في وعيك. فتحرَّك معي هذا الشعار، حتى جاء الوقت الذي بدأت أقرأ فيه الكتب بشكلٍ أكثر جديَّة، فاكتشفت أني في حاجة لهذا الشعار ليحميني من عبث الكُتاب وجهلهم.

بعد تلك الفترة بقليل ترجم إخواننا الأشوام كتاب «اللا منتمي» لكاتب بريطاني يُدعى كولن ولسن. وكما عوَّدونا، طاروا به وجعلوه أعظم كاتب في القرن العشرين، وكما تعوَّدنا (ومازلنا) رثعنا

وراءهم، حتى أصبح كل كاتب سعودي لابد أن يأخذ له جملة أو كلمة ويضمّنها في مقالة.. فأصبح أكبر همِّي أن أقرأ كتاب «اللا منتمي».

بصراحة أعجبتي كلمة «اللا منتمي».. تركيبتها جديدة وجذابة. لم أترجمها إلى (غير المنتمي) خشية أن أفسد جمالها وتفردها. لم أعرف دلالتها الحقيقية إلا بعد سنوات عندما بدأت أعرف بعض الشيء عن اللغة الإنجليزية. فعرفت أنها مجرد ترجمة طنانة لكلمة (outsider) (الغريب).. الشيء العجيب في الإنسان أنه قادر على أن يخدع نفسه. لمجرد أن أحتفظ بوهج الكلمة لم أبذل أي جهد لتحليل دلالتها. تركتها كما هي أتلمظ بها في المجالس وبين زملائي في المدرسة. وعندما أتكلم تراني بمناسبة وبدون مناسبة أحيل الناس إلى كتاب «اللا منتمي». كنت قد حفظت تقريباً كل المقتطفات التي لطشها كُتاب الجرائد وزخرفوا بها مقالاتهم.

كان موقفي هذا يغيظ أستاذ اللغة العربية الذي لم يقرأ في حياته سوى كتاب جواهر الأدب. وبعد أن بلغ به الغيظ مبلغه دعاني مرة إلى غرفة المدرسين المصغرة، وهي الغرفة التي يستريح فيها المدرسون من غير المدخنين، وهم أساتذة الدين واللغة العربية. فكان اللقاء تقريباً أشبه بمحاكمة مؤلف كتاب «مدام بوفاري» في فرنسا. فحوى المحاكمة هي في إشارتي لكتاب أجانب لها دلالتها الأخلاقية والعقدية. كنت أدافع عن نفسي بصفتي قارئاً لكتاب «اللا

منتمي» لا بصفتي لاطش عبارات وجمل من كتاب جرائد الله أعلم مدى فهمهم لما قرأوه. وبعد حوالي ربع ساعة من المحاكمة نصحني أخيراً بأن أقرأ كتاب «جواهر الأدب» فهو أبرك وأنفع ديناً ودنيا.. من هذه المحاكمة عرفت أن مدرس اللغة العربية لم يقرأ في حياته سوى كتاب «جواهر الأدب»، وأشك أيضاً أنه قرأه بالكامل، ففقد احترامي وتقديري له.. ودفعني هذا لأن أحصل على كتاب «اللا منتمي» بأي ثمن لأقرأه بنفسي.

لم يكن الوصول إلى الكتاب في تلك الأزمنة سهلاً، لا أتذكر في الرياض إلا عدداً محدوداً جداً من المكتبات التجارية التي تحوّلت بشكل متسارع إلى مجرد قرطاسيات حتى أصبحت كلمة مكتبة تعني قرطاسية. كانت هناك مكتبة اسمها «مكتبة الحياة» تقع في شارع الثميري. لا أعرف هل كانت هي المكتبة الوحيدة الحداثية في الرياض أم لا، ولكنها المكتبة الوحيدة التي يمكن أن تشتري منها كتباً حديثة.

لقد أصبح كتاب «اللا منتمي» أكبر همِّي.. قررت أن أعرف من هو «أغسطين» ومن هو «برنارد شو» ومن هو «فلوتير».. كانت هذه الأسماء الأعجمية وغيرها تدور في مقالات كُتاب الجرائد، ومن يعرفها سيملك المفاتيح السحرية للثقافة. لا أتذكر كيف تدبَّرت المبلغ. أتذكر فقط أني ركضت إلى شارع الثميري، والى مكتبة

الحياة، ولكني أصبت بخيبة أمل عندما قال البائع إنه لم يسمع بالكتاب من قبل.

هذا يعني أني سأبقى خارج العمل الثقافي.. ومن فرط سذاجتي كنت أتساءل بشكل منطقي ومشروع: طالما أن كل الكُتاب والمثقفين في الجرائد يتحدثون عنه، ويشيدون به ويغرفون منه، لماذا لا يوجد في المكتبات؟ بل لماذا لا يدرَّس في المدارس؟ لماذا يُترك الأمر لمدرس اللغة العربية بكتابه الساذج ذي القطاعة الحمراء «جواهر الأدب» الذي يُعبئ رفوف مكتبات البطحاء.

لم تطل خيبة أملي.. فمع بداية سحب الكتب الجيدة من الأسواق، وتحويل المكتبات إلى قرطاسيات، تحوَّل عدد من بائعي المجلات في حراج ابن قاسم، خصوصاً بائعي مجلة «العربي» إلى تجارة الكتب الممنوعة.. افتتحوا تجارتهم بكتاب «حياتنا الجنسية» الشهير لمؤلفه السوري الدكتور صبري القباني، فحقق لهم أرباحاً طائلة مما شجَّعهم على المُضي قدماً في تهريب الكتب بكل أنواعها.. اتصلت بأحدهم فواعدني ولم يحضر على الموعد، ثم ضرب لي موعداً آخر ولم يفِ.. فمن تكتيكاتهم ألا يبيعك فوراً بل يماطل بك لسببين: الأول يتعلق بالاحتياط والتحرز من السلطات، والثاني وهو الأهم أن يدخل في روعك خطورة ما يقوم به فيحق له أن يقرِّر السعر الذي يريد.

كان هو أول إنسان أتحدَّث معه عن كتاب «اللا منتمي» من خارج «شِلتي» في الحارة. كان يتحدث معي بصوتٍ خفيض وهو يطالع هنا وهناك لكيلا يسمعنا أحد، وعندما تأتي كلمة «اللا منتمي» كان يخفض صوته أكثر، فأعرف أنه قال الكلمة من حركة شفتيه. بعد أن أكد لي أن الكتاب في طريقه إليّ لم يتركني أرحل دون أن يعرض عليّ العدد الأول من مجلة «العربي». كان يعرف هوس الناس بمجلة «العربي» الكويتية ورغبتهم العارمة في تلك الأزمنة بجمعها واقتناء أعدادها كافة.. لم أكن بعيداً عن هوس الناس، ولكني لم أكن أملك المبلغ الكافي لشراء مجلة «العربي» وكتاب «اللا منتمي» معاً. فاكتفيت بالتأكيد على الكتاب، ووعدته بأن أتدبَّر أمري في المستقبل وأشتري العدد الأول من مجلة «العربي»..

مضى أكثر من أسبوع قبل أن يتصل بي ويخبرني أنه لم يحصل على الكتاب، ولكنه أحضر لي كتاباً أهم من كتاب «اللا منتمي». لم أتخيل أنه يوجد في هذه الدنيا.. كتاب أهم من كتاب «اللا منتمي».. فركضت إلى بسطته في حراج «ابن قاسم» لأتحقق من الأمر.. غمز لي بعينه اليمنى، وأشَّر لي برأسه مع مجموعة من الحركات التي تدلُّ على أننا كنا نتبادل شفرة سرية لتضليل الناس في الحراج..

تركت الحراج واتجهت إلى قيصيرة آل وشيقر، ومنها إلى

سوق الحساوية، ثم إلى سوق الربابين.. وأخيراً التقيت به على تقاطع شارع العطايف مع شارع الشميسي القديم.. كان يحمل في يده كيس ورق من تلك الأكياس التي تباع فيها الخضار. التفت يميناً وشمالاً ثم سلَّ من داخل الكيس كتاباً ضخماً جداً، كتب في وسط غلافه الأخضر «سقوط الحضارة»، وفي أعلاه كتب «كولن ولسون».

شعرت بالرعب وأنا أقرأ العنوان واسم المؤلف، ودون أدنى تردُّد وضعت في يده مبلغ ثلاثين ريالاً عدًّا ونقداً.. فسقوط الحضارة عنوان كبير يليق فعلاً بكتاب يصدر مع نهاية حقبة الستينيات الزاهية. خصوصاً أن هناك كتاباً آخر (رجَّ العالم رجًّا) يحمل نفس العنوان لكاتب ألماني تنبأ فيه صاحبه بسقوط مريع للحضارة الغربية. كنت قد سمعت بالكتاب الألماني من أفواه كل المتربِّصين بالحضارة الغربية والكارهين لها، يتغنون به (على قاعدة شهد شاهد من أهلها). وهو يشبه إلى حدٍّ كبير بعض الأبحاث والتقارير المعزولة التي تصدر في أيامنا هذه من باحثين غربيين ينادون فيها بالفصل بين الجنسين في المدارس أو بعودة المرأة الغربية لتقرّ في بيتها.

لم أتبين الفرق بين الكتابين سريعاً؛ لأني لم أفهم كتاب «سقوط الحضارة» لكولن ولسن أبداً، ولم أقرأ كتاب «سقوط الحضارة» لشبنغلر إلا بعد سنوات. الشيء الذي اكتشفته بعد حين

هو أن كتاب «سقوط الحضارة» لـ(ولسن) لم يكن يختلف في شكله ومضمونه عن كتاب «اللا منتمي».. حشد عظيم من الأسماء التاريخية والثقافية والدينية. وجدت فيه ضالتي.. فقد أودع مشكوراً في رأسي حشداً عظيماً من الأسماء الأعجمية. ولكن هذا لم يخفف من إعجابي ببعض كتاب الصحف، ولم يرفعني شريكاً لهم بعد.

كان الزمان هو بداية دخول الكتابة الغامضة التي سُمِّيت بعد حين بالحداثة. كان رائد هذا النوع من الكتابة قد أصدر كتابه الحداثي الأول. لا أريد أن أذكر اسمه؛ لأنه ما زال حياً، وما زال يكتب، وما زال يظن أنه كاتب.. وليس من العدل تسفيه الإنسان في شيخوخته.. كنت أتابعه، وأحفظ كثيراً من أقواله.. كان ميَّالاً إلى الكلمات الشعرية والتشبيهات والتوريات، ومختلف الزخارف الكتابية، مع إضافة أقوالٍ من فلاسفة ومفكِّرين وشعراء، ويفضل دائماً أن تكون لأسماء أعجمية.. ولا ينسى أبداً نصيبه من الكلمات الغزلية لزوم الشباب والمراهقين.. إذا علمنا أن تلك الفترة سجَّلت بداية دخول المرأة السعودية عالم الصحافة.

قرأتُ الكتاب خلال ثلاثة أسابيع أو أربعة، ليس لأنه كبير فحسب، ولكن لأني قرَّرت أن أفهمه واستوعبه.. فهو كما ارتأيت لنفسي في حينها سيكون سلاحي في مستقبل الأيام للتصدِّي لثقافة أستاذ اللغة العربية، خاصة كتاب «جواهر الأدب».

الكتاب يتضمَّن أيضاً سيرة المؤلف البوهيمية.. تسكّعاته، وضياعه وتشرّده، ودورانه على المكتبات، ونومه في الطرقات.. سيرة حياتية وثقافية تغري مراهقاً قرر أن يكون مثقفاً بأقل التكاليف.. بالكاد عندما انتهيت منه إلا وبدأت تظهر عليّ أعراض الثقافة.. هبطت درجاتي الدراسية، وتدنّت نسبة حضوري إلى المدرسة، وزاد احتقاري للمدرسين مع إهمال صريح لقيافتي، ولكي لا أظهر بصورة المهبول الرسمي، كنت أحمل في يدي دائماً كتاباً أو كتابَين، كما يفعل شباب المثقفين في الغرب..

من ضمن ما سمعت أو قرأت في هذا الكتاب أن المثقفين الفرنسيين (ما تطيح الكتب) من أيديهم أبداً. يأخذونها معهم أنَّى ذهبوا: إلى المقاهي.. إلى الحدائق العامة.. في القطارات.. وفي الباصات.. فالتزمت بتقاليد المثقفين الغربيين، ولكن الظروف المحلية فرضت منطقها.. لا توجد قطارات.. لا توجد باصات.. ولا يوجد مقاهٍ على الأنهار، ورغم ذلك لم أتخلّ عن نهج المثقفين أبداً.. كنت أحمل في يديّ كتاباً حتى إذا أرسلني «أبوي أجيب العلف لعنزنا من دخنة».. بعد سنين طويلة اكتشفت أني لستُ الوحيد.. بل كل المثقفين العرب سلكوا نفس الطريق، وانتهوا مثقفين كما انتهيت.. هكذا بدأت الثقافة العربية الحديثة، وترعرعت وما زالت.

* * *

استراحة «بنبان»

توَّجت «أليسا» كأجمل امرأة في هذا العالم.. كان يمكن أن تحسم المسألة لمصلحة الأمريكية «جنيفر لوبيز»، ولكن لاعتبارات قومية رجحت كفة «أليسا».. هذا ليس رأيي وإنما آخر ما توصَّل إليه عواجيز استراحة «شويمطة» بعد نقاشات مضنية استمرت حوالي ستة أشهر.. واستراحة «شويمطة» كما سمَّيتها هي استراحة يجتمع فيها مجموعة من كبار السن، أصغر واحد فيهم لا يقل عمره عن خمسٍ وستين سنة. أسَّسوها تحت ادعاء الاجتماع والانبساط، وهي في الواقع ثقب يطلون من خلاله على مجريات الأيام التي لا تبالي بشيخوختهم.. «تقاطّوا» فيها وأثثوها بكل ما يحتاجونه من ضروريات.. أكثر شيء كلفهم هو «الرسيفر». دفعوا فيه ألوفاً مؤلفة على حد تعبير أبي سالم أحد الأعضاء. كان هذا قبل سنوات. ولكن إذا دخلت الآن الاستراحة تستطيع أن تقول إنك تدخل معرضاً لبيع الرسيفرات.. فلديهم فلسفة لم أصل بعد إلى فحواها، وهي عدم التخلص من الرسيفر القديم إذا جاءوا برسيفر جديد.. لا أعرف هل

مبعث هذا التصرُّف هو الحنين للأدوات القديمة، أم هو الامتنان لجهاز أعاد لهم الاتصال بشبابهم الذي ولى.

لم يؤثثوا الاستراحة كما تخيَّلوها، وإنما بناءً على الاحتياجات الفورية. فهم يؤمنون بتغيُّر الزمن المفاجئ. مَن غيرهم يؤمن بهذا؟! إستراتيجية التأثيث لديهم تقوم على مركزية الرسيفر.. كل قطعة أثاث أو جهاز أو أداة يجب أن تخدم وجود الرسيفر. على مرِّ الزمن امتلأت الاستراحة بكل الاحتياجات الضروية فعلاً.. من رسيفرات مفتوحة ومشفرة، وشيش وأراجيل ومعسل بأنواعه، و«راديو» صغير. مع أن أبا منصور وهو أحد الأعضاء أيضاً رفض في البداية إدراج «الراديو» ضمن الضروريات، فالراديو لا قيمة له في زمن أليسا. ولكن أبا سالم أصرَّ وحاجج بأن الواحد يريح عيونه شوي. أذكّركم بأن تأسيس الاستراحة تمَّ قبل أن تفطم «نانسي عجرم».. حيث افتتحت في الزمن الذي كانت فيه ذرعان كلوديا الشمالي تملأ الشاشات. ومع تصادم الآراء حول الراديو ذكّر أبو مرزوق الجميع بحفلات أم كلثوم التي كانت تذيعها إذاعة «صوت العرب» في ليالي الستينيات.

كان أبو مرزوق حينذاك في أقصى درجات شبابه. عندما ينام في السطح يضع الراديو جنب المخدة تاركاً صوت أم كلثوم يصرخ في نجوم الكون مستجديا: (عزت جمالك فين من غير ذليل يهواك.. وتجيب خضوعي منين ولوعتي في هواك..) وأبوه وأمه في السطح

المجاور يفتك بهما الناموس، ومن شدة الغيظ يصرخان عليه: (قصّر الراديو.. حسبي الله عليك ما بقي على صلاة الفجر إلا ساعة يا قليل الحياء).. وأخيراً فرضت العواطف الرومانسية نفسها وحسمت القضية، وسمح بشراء راديو صغير. ولكي يتسق الراديو مع الأهداف الإستراتيجية للاستراحة دار أبو مرزوق على كل محلات الإلكترونيات حتى وقع على راديو أكبر قليلاً من حجم الكف، مطوياً في غلاف من جلد بني اللون.. شاشته ومؤشراته تصطف في الواجهة العريضة.. كان هذا أقرب راديو للراديوهات الفاخرة التي كانت تستخدم أيام النوم في السطوح وبين النجوم.. لا يتذكر أحد متى جرى استخدام الراديو منذ أن تمَّ شراؤه، حتى أبو مرزوق وأبو سالم اللذان قادا حملة الراديو لم يجدا الوقت للاستفادة منه.. فالقنوات الفضائية لا تنفك تتزايد يومياً.

في كل مرة يقررون فيها الجلوس خارج المجلس في الهواء الطلق للعب البلوت، والبحث عن أم كلثوم يتناهى إلى أسماعهم أن قناة غنائية جديدة تمَّ افتتاحها.. يعرفون بالخبرة الطويلة وبالحدس أيضاً أن القنوات الغنائية لا تأتي خالية الوفاض، ولا تكرّر غيرها.. لابد إذاً من وجوه جديدة خاصة أن الخليجيين بدأوا ينافسون اللبنانيين في تقديم تشكيلة من الروائع بعد أن أفرج العراق عن منتجاته من الفواكه البشرية المنوّعة.

لم تفز «أليسا» بلقب أجمل امرأة في العالم بشكل ارتجالي أو

وفقاً لمقاييس مرحلية، فاستراحة «شويمطة» لا تعرف الارتجالية في أبسط أمورها، فكيف إذا كان الأمر يمسُّ جوهر وجودها. ما هي المقاييس التي اعتمدها شيابنا لتتويج «أليسا» على حساب الأمريكية «جنيفر لوبيز»؟

يشهد الله أني لم ألاحظ عليهم أيَّ ميول إقليمية أو قومية.. فمنذ اللحظة التي يشغِّلون فيها الرسيفر وحتى اللحظة التي يغلقونه، وعيونهم مركّزة على قضايا الجمال دون غيره، فلا فرق بين عربية وأعجمية إلا بما حباها الله من جمال. ولكن عندما انحصرت المسابقة في «أليسا» العربية وجنيفر لوبيز الأعجمية، وعجزوا عن حسم الأمر تقنياً، كان لابد من إضافة معيار جديد للوصول إلى نهاية حتى لا تطول المسألة أكثر مما يجب.. فالمتسابقات أكثر من ثلاثمائة امرأة، والأيام القادمة حُبلى باحتمالاتها، والفضائيات لا تكفُّ عن الدفع بالمزيد من تشكيلات الجمال، والعمر لم يعُد فيه أكثر مما راح.. فالمعيار القومي في النهاية خير من القرعة التي اقترحها أبو سالم دون حماسة.

كانوا قد اعتمدوا المعايير الثلاثة التي طوَّروها عبر السنين، وعبر جغرافية العالم كله. معايير ربما لم يسمع بها أحد من قبل. يمكن حصرها في ثلاث كلمات (الكتلة والحركة والتناغم).. سوف أشرح لكم (على قدر فهمي) ما الذي تعنيه هذه المعايير بالنسبة لجمال المرأة، كما سأشرح لكم لماذا اعتمدت هذه المعايير

وأهملت المعايير الأخرى، مثل (الوزن والطول والقوام وجمال الوجه..) وغيرها من المعايير التقليدية المبتذلة.. التزموا هذه المعايير طوال فترة الحوارات والنقاشات فكانت النتيجة الأساسية أن «جنيفر لوبيز» فازت في الكتلة و«أليسا» فازت في الحركة، ونشب الخلاف على أيهما أقدر على تنغيم العلاقة بين الكتلة والحركة، وهو ما سمَّيناه التناغم.. يمكن أن أدَّعي أن معيار الثقل القومي لم يكن قومياً بالمعنى العنصري، ولكنه استخدم من باب التواصل.. فالاختيار في النهاية له علاقة وثيقة بالامتلاك، فكل واحد منهم يخلط ما يراه على الشاشة بأحلامه وأوهامه وماضيه.. فعندما يذهب أحدهم إلى منزله منهكاً من التفرُّج، وشفط المعسل، والجدال العنيف.. لا يستريح على الفور، ولا يسمح للنوم بأن يتغافله حتى يقضي جزءاً كبيراً من الليل وهو يمرِّر ما شاهده في الفضائيات عبر أحلام يقظة مكثّفة.. وفي اليوم التالي يعود مزوَّداً بوعي جديد، وطاقة وثابة؛ لأنه أجرى. وهو يتقلب في فراشه. حواراً شخصياً شديد الحميمية مع المرشَّحات واحدة تلو الأخرى.

فالمسألة ليست مجرد مسابقة محايدة ولكنها تنطوي على رغبات مدفونة وامتلاك شخصي لابد أن تلعب اللغة دوراً مهماً في تعميره لا يمكن لأي منهم أن يغتصب جنيفر لوبيز للتخاطب معه باللغة العربية مهما ترامت حدود الخيال.

هذه ليست المسابقة الأولى التي تُجرى في استراحة «شويمطة»

و«أليسا» لن تبقى فترة طويلة متربّعة على عرش الجمال العالمي.. فقد سبقتها كثيرات، وسوف تلحق بها كثيرات.. فشويمطة تنطوي على ديناميكية عَزَّ مثيلها.. فمنذ اللحظة التي يستقر الرأي على واحدة معينة، سرعان ما يتم استهلاكها.. فأحلام اليقظة «على كبر» وحش لا حدود لشراهته.

بدأت فكرة الاستراحة باقتراح من «أبو منصور».. لم يكن خضوعاً لموضة الاستراحات التي انتشرت قبل سنوات. ولكن حِس المستقبليات الذي يتمتع به أبو منصور أنبأه بأن هناك تغيُّراً سيحصل في العالم يجب الإمساك به.. كانت الفضائيات في بدايتها.. لم يكن في الفضاء سوى قناتي الـ«إم بي سي» والفضائية المصرية، مع قليل من القنوات التي تبث من الشرق..

هذه الإرهاصات أوحت له بإعادة تركيب الشلة كما كانت قبل ثلاثة عقود من الزمان.. فالاجتماعات المتقطعة في الملحق، وشرب القهوة الفاضي لا تتناسب مع المستقبل الذي بدأ يُطِل برأسه خاصة أن الفترة التي بدأت فيها الفضائيات انتشر فيها المعسل، وأبو منصور «بطّل» الدخان، ولابد من تعويضه بشيءٍ آخر.. فالجمع بين المعسل والفضائيات عند مجموعة شباب لا يمكن أن يتم في ملحق «فله» مليء بالعيال والأحفاد.. هذا يدخل.. وهذا يطلع.. وهذا يسلم. لا يمكن مناقشة قضايا الجمال وفقاً للمعايير التي أسسوها على مدى سنوات في الملحق أو في مجلس البيت،

وأم العيال ربما تسمع أو أن تحدث مقاطعة من ضيفٍ ثقيل يُعيدهم إلى وقار الشيخوخة المرير. ولكن قبل المضي في متابعة حكاية الجمال.. علينا أن نعرف كيف وصل الجميع إلى معايير الجمال المعتمدة؟!

تعريف الجمال في استراحة شباب شويمطة لا يلتفت أبداً إلى التفاصيل التقليدية. لو قُدِّر لك أن تنصت للحوارات التي تدور في الاستراحة ستشعر بأنك في قاعة محاضرات بكلية العلوم، وليس في استراحة في شرق الرياض تتقرر فيها مصائر الجميلات في هذا العالم.. عندما تتبنى هذا الاتجاه في النظر إلى الجمال فسوف تتداعى في قلبك المقاييس التقليدية (النحافة والسمنة والوجه والشعر والقوام) وغيرها مما اعتاد عليه قليلو الخبرة من الناس.. فالجمال في نظرهم يقوم على الكتلة، وهي جماع الجسد ابتداء من منابت الشعر وانتهاء بأظافر القدم. والحركة هي الفراغ الذي تتمدَّد في داخله هذه الكتلة. فالتناغم بين الكتلة والحركة هو الذي يعطي المرأة جمالها الحقيقي.. هذا تبسيط مني للفكرة. فالنظر إلى العلاقة بين القسمَين يتطلب مرونة عالية.

فكل شباب الاستراحة متفقون على أن الجسد خارج الحركة لا قيمة له ولا معنى جمالي لوجوده. فجثة المرأة الميتة أو تمثال المرأة مهما بلغ من الاتقان لا يمكن أن يثير عندك أدنى درجة من الإحساس إلا بما يحيل إليه من ذكرى لامرأة تمتعت في يوم من

الأيام بحضور داخل حركتها. والحركة حسب وجهة نظرهم ليست مجرد عملية الانتقال من مكان إلى آخر، ولكنها مقدار الانتقال الذي يشي بكمية الحياة في الجسد. ولكي نفهم هذا علينا أن نتذكر أن كمية الحركة في الجسد تتناقص مع التقدم في العمر، وتتطور نوعيتها مع العمر. فهي خرقاء وغير مرتبة في سن الطفولة، ولكنها تنتظم وتتخذ أشكالها الجمالية في سن الشباب. ولسنا في حاجة إلى القول إن لكل امرأة حركة تختلف عن حركة الأخرى، وهذه تقررها كمية الحياة في كتلة الجسد.

النقطة المعقَّدة في الموضوع أنهم جميعاً متفقون على أن الحركة التي يتمدَّد فيها جمال الجسد لا يتوقف وجودها على كميتها، ولا حتى على نوعيتها، ولكن على انبعاثها التلقائي من داخل الجسد.. يجب ألا يكون حضور هذه الحركة قد جرى بترتيب مُسبق بين العقل والجسد.. ولتوضيح ذلك نقول: إن كل إنسان يستطيع أن يتدرَّب على الرقص ويتقنه، ولكن الجمال الذي تلمسه عند هذا دون ذاك يكمن في الحركة التي تشي بالحياة. لأنها في النهاية ليست بالضرورة مرئية من خلال تبعثر الجسد أثناء المشي أو الرقص، أو أي صيغة انتقال أخرى. ولكن يمكن أن تلمسها عند المرأة من خلال كمية الأنوثة التي تتظاهر في الأطراف، وبهجة الأنوثة التي يعمل الوجه كغلاف لها. قد لا تكون خارجية. قد تكون المرأة في حالة سكون، ولكنها في الواقع في

حالة حركة دؤوبة داخلية ستشعر بوجودها من خلال إحساسك بالمرح الذي ينتابها حتى في أقصى درجات الحزن.

فجمال وجه المرأة مثلاً لا تقرره الملامح، ولكنه يتقرر من خلال كمية الحياة في داخله، وهذه الحياة تعبِّر عنها ابتسامة محجوزة مدى الحياة داخل الوجه.. تتنقل دون توقف (حتى في أثناء النوم) من الشفتين إلى العينين والعكس. لا يخلق وجودها اتصال خارجي وإنما هي من طبيعة الوجه الأنثوي نفسه.. فكمية هذه الابتسامة وسرعة تحرُّكها تحت سطح الوجه هي التي تقرِّر جمال الوجه نفسه. وبطبيعة الحال فحركة هذه الابتسامة داخل الوجه هي جزء من حركة تشمل الجسد كله.. ولكن هذه الابتسامة (نقطة الضوء إذا أردنا المجاز) استقرت في الوجه وانحجزت فيه لا تبارحه أبداً؛ لأن الوجه هو المكان الوحيد في الجسد الذي يتضمن مسامَّات مهيَّأة لخروج الابتسامات المؤقتة للتواصل مع عالم الآخرين. وهذه الابتسامة لا علاقة لها بابتسامات التواصل. لا تخرج من الوجه إلا مع خروج الحياة من الجسد كله.. ولكنها بالتأكيد تخفت وتتناقص مع العمر.

هذه البهجة هي التي منحت «أليسا» أعلى درجات التقدُّم على قريناتها، فوجه «أليسا» لا يتسم بأي جمال تقليدي (جمال باسكال مشعلاني مثلاً).. عندما تنظر إلى وجه «أليسا» بعيون متسرعة لن تجد الجمال الذي تضفه الكتب الأكاديمية. فكما يقول أبو منصور:

وجهها مثل وجه الجرو، ولكن على العيون التي تنظر إلى «أليسا» أن تبحث عن البهجة، وتتواصل معها بقوة.. (فكمية ابتسامة الحياة المحجوزة في وجهها هائلة).

لم أتحدث عن الطريق الطويل والبعيد الذي تمَّ من خلاله بناء معيار الجمال عند شياب شويمطة.. كما لم أحط بكافة جوانب هذا المعيار لأضعكم في الصورة الحقيقية لتظاهرات المرأة عند رجل تجاوز الستين.. فهذا سوف ينقلنا إلى فترات مظلمة من تاريخ مؤسسي استراحة «شويمطة».. ولكن بداية التاريخ ونهايته متشابهتان إلى حدٍّ بعيد.

إذا كانت «أليسا» قد وُلدت في أوائل الثمانينات فالمعيار الذي مهَّد لصعودها على هرم الجمال العالمي سبقها بحوالي عِقدَين من الزمان. ولكنه لم يكتمل إلا مع اكتمالها ودخولها عالم شويمطة.. وإذا أعطى ربك شياب شويمطة «طولة عمر» فلا شك أن معيار الجمال هذا سوف يتجاوز «أليسا» ويجعلها جزءاً من ركام التاريخ المتواصل، كما فعل بكثيرات قبلها.

تشكَّل «شويمطة» استراحة جذب لشباب الستينيات، بدأت بثلاثة فقط، وهي اليوم تزخر بخمسة أعضاء أساسيين لا يخرجون من الاستراحة إلا لأسباب خطيرة، كعيادة مريض، أو تشييع جثمان صديق، أو لإحضار نوع جديد من المعسل. وهناك آخرون يأتون

ويذهبون. لا يستطيعون البقاء طويلاً في «شويمطة»، ولكن عدم اكتمال عضويتهم لا يعني أن هناك احتجاجاً من أي نوع على نشاطات الاستراحة، وإنما لأن زوجاتهم قويات، أو أن بعضهم تزوَّج من جديد قبل حوالي عشرين سنة، وهذا يعني أن زوجاتهم مازلن في أوجّ شبابهن لا تطوف عليهن ألاعيب الشياب.. فزياراتهم سرقة.

يعدُّ أبو منصور مؤسس استراحة «شويمطة» وباني نهضتها.. دفع حوالي نصف تكاليف التأسيس من جيبه، وحرَّض كل شايب توسَّم فيه المحبة الخالصة للجمال ومشتقاته على الانضمام إلى عضوية الاستراحة. والمسألة ليست بالفلوس، فخبرته في شؤون الجمال تمتد لأكثر من أربعين عاماً قضاها بحثاً في أركان الدنيا الأربعة: من لندن إلى باريس، ومن القاهرة إلى كازا، ومن مانيلا إلى بانكوك، فشويمطة في النهاية هي الثمرة التخيلية لأيام جميلة لن تعود أبداً.

آخر علمه بأم منصور كان قبل حوالي ثلاثين سنة.. كانت المرأة الوحيدة التي تعرَّف عليها وفقاً لشروط الجمال التي ورثها عن أبيه، وتعلمها من الناس السُّذج من حوله.. بدأ معيار الكتلة والحركة يتنامى في داخله مع زيارته الأولى للقاهرة حتى أنه لم يكتفِ بالعودة من القاهرة بالذكريات، وإنما عاد وإلى جانبه زوجة مصرية وزنها ضعف وزن أم منصور، وحركتها أسرع من حركة أم

منصور، وأكثر تناغماً مع كتلتها. من هذه المرأة بدأ يلمس حقيقة التلازم بين الكتلة والحركة. وإن لم يكن هذا التلازم واضحاً بما فيه الكفاية.. لم يستطع أن يستمر معها أكثر من ستة أشهر. انتابه شيء من القلق لأسباب يعود معظمها إلى نوادي الكورة التي تقدِّم أفلام السينما المصرية.. فما كان يشاهده في الأفلام لا يشبه أم منصور ولا زوجته المصرية صاحبة الكتلة المضاعفة.

كان الوقت قد حان لاكتشاف الشرق.. في ذلك الزمن كان قد بلغ مرحلة النضج ودخلت المملكة مرحلة السبعينيات الميلادية، وبدأت الفلوس تتكاثر في أيدي الناس. لم يكن في البداية يصدِّق القصص التي كانت تقال عن بانكوك.. تردَّد كثيراً قبل أن يقوم برحلته الأولى إلى هناك، فالشرق بعيد ومجهول.. ولكن قلق الكتلة والحركة دفعه إلى المغامرة. لم تستغرق رحلته الأولى إلى هناك أكثر من أسبوع. كانت رحلة استكشاف. عاد منها غامضاً وساكتاً. ظن الناس أن بانكوك لم تعجب أبا منصور.. وأن ما كان يُقال عن الوفرة فيها ليس إلا من قبيل المبالغة والتهويل.

عاد أبو منصور إلى الرياض شخصية أخرى.. لم يتحدث كثيراً عن مشاهداته أو تجربته كما كان يفعل عند عودته من سفراته السابقة. اعتاد أبو منصور بعد عودته من عبدان أو البحرين أن يجمع الشلة في الروشن أو كيلو ستة، ويقص عليهم إنجازاته الكبيرة. يتحدث بالتفصيل. يُعدُّ أبو منصور أكبر مروِّج لعبدان وللبحرين،

حتى أنه كان يُسمَّى «النوخذه» من كثرة ما ركب اللنش الذي يقلُّ الركاب من الخبر إلى المنامة.

انتحى أبو منصور بأبي مرزوق على جنب (على فكرة قبل أن تترسَّخ الكنيتان) وأخبره بنتف من الحقيقة المتوافرة في بانكوك، لم يكن أبو مرزوق يشكُّ أبداً في خبرة وقدرة (أبو منصور) وصدق دعاواه، ولكن ما سمعه كان مذهلاً، أربكه وحطم قدرته على التخيُّل، لم يكن جاهلاً، ولم يكن متقوقعاً، بدأ سفراته منذ نعومة أظافره، كان عمره خمس عشرة سنة عندما عبر الدهناء، ثم شق عباب البحر ليصل إلى جزيرة اللؤلؤ، ولكن ما يقوله أبو منصور أقرب إلى الأساطير، لا يعني أن هناك شكّاً أو حتى مجرد تساؤل حول الأشياء المذهلة التي سردها عليه رفيق دربه، كان رائده في أول سفرة له إلى عبدان قد عبر به الكويت والبصرة وديار الكواوله، أبو مرزوق أكبر من «أبو منصور» بسنة أو سنتين، ولكن القيادة لا تعترف بالسن، تعلم منذ ذلك الحين أن يسمع وينفذ دون أن يسأل، فأبو منصور يبقى رائداً لجيله والأجيال التي تلت جيله، لم يكثر من الأسئلة أو الاستفسارات، فطبيعة ما أسرَّه له به أبو منصور لا يمنحه أي قدرة على بناء الأسئلة، سمع وصفاً سريعاً لعالم لم يطله في يوم من الأيام خياله.. وخصوصاً المساج على أيدي الشابات التايلنديات.. ودون تردُّد باع أبو مرزوق سيارته

«الفورد» ولم يكن لديه مانع من أن يبيع ثيابه لولا أن «أبو منصور» طمأنه بأن مبلغ السيارة كاف.

قال لأمه ولزوجته إنه سوف يسافر إلى بانكوك بكل شفافية، كان اسم بانكوك بريئاً ومحايداً لا يشي بأي دلالات تتعلق بالقلب فضلاً عن معيار الكتلة والحركة، في الواقع لم يكن معروفاً أصلاً، فلم تسأله أمه أي سؤال يتعلق ببانكوك، سألته عن السفر ظانة أن المسألة ثلاثة أو أربعة أيام ثم يعود كما عوَّدهم في سفراته السابقة، أما زوجته فلم تبادر بأي سؤال، تثق به بكل رومانسية السطوح الصيفية المفعمة بالنجوم، كان قد تزوج وتعايش مع زوجته حسب المعايير التي ضخَّتها أم كلثوم في رأسه، سيعود ببعض الأجهزة الكهربائية لبيعها، الإنسان لازم «يترزق الله»، هكذا أفهمها، لن يغيب أكثر من أسبوع..

ولكي لا نظلم «أبو مرزوق» يجب أن نشير إلى أنه لا يعود من البحرين إلا ومعه مصاغ، ولا يعود من عبدان إلا ومعه «زولية كاشان» صغيرة، ببيعها يسترد حوالي عشرة في المائة من مصاريف الرحلة.. تجارة واضحة المكاسب، لم يدخل البيت خالي اليدين، ولكن من شاهد استعداداته والمصاريف التي أمَّنها لبانكوك سيعرف أن النوايا مختلفة، لم يفقِّهه أبو منصور بأي شيء عن بانكوك، فاضطر أن يختلق حكاية الأجهزة الكهربائية، فأبو منصور عاد من بانكوك بأسرع وقت ممكن حتى يتسنى له العودة إليها مجدداً

محمَّلاً بالزاد والمتاع الكافي، فمعرفة بانكوك طويلة ومعقدة وتتطلب وقتاً ممتداً لا يعلم مداه إلا الله، هكذا فهم أبو مرزوق أيضاً.. عليه أن ينسى ما تعلمه من رحلات البحرين وعبدان، هناك أفق جديد سوف يُفتح في سماء شباب العسيلة، كأنما هناك بُعد خامس على وشك أن يكتشفه الدماغ الإنساني السجين في الأبعاد الأربعة، كان لابد من التسلح والاستعداد للطوارئ، التفت في عالمه عن أقرب سلاح فلم يجد سوى مسجّل صغير وأشرطة مليئة بأغاني فريد الأطرش وأم كلثوم، اختطفها ووضعها في شنطة السفر ظاناً أن المسألة فيها نوم في السطوح، وهو لا يستطيع أن ينام إذا لم يضع الراديو تحت مخدته.

لم يكن السؤال عن الطبيعة يهمُّه، ولكنه سأل فقال له أبو منصور إن بانكوك كلها خضراء، بحث عن الخضار في رأسه فلم يصل خياله إلى أبعد من الخرج، فهي أقرب مدينة خضراء لمسها عن قُرب، فتصوَّر خضار بانكوك مثل خضار المشتل في الخرج، الإنسان عندما يسمع عن شيء لا يعرفه يحتاج إلى نقطة يبدأ منها بالتخيُّل، فالخيال لا ينشط في الفراغ، فراح يردِّد مع سلامة العبد الله (وأنا تل قلبي تل هوى البال في المشتل) بادئاً الرحلة الطويلة والشاقة التي أوصلته في شيخوخته إلى استراحة «شويمطة» وبطش الأحلام المزدحمة بأليسا وشقيقاتها.

لم ينضم أبو سالم إلى فرقة «أبو منصور» (الباحثة عن الجمال

الأبدي) إلا بعد سفرة بانكوك بثلاث سنوات.. كان متردِّداً، ويحتاج إلى دعم لاتخاذ قراراته.. يأتي يومياً إلى «الروشن» ليستمع إلى حكايات بانكوك. وجِّهت له الدعوة لمرافقتهما أكثر من مرة، ولكنه كان خائفاً. كلهم أولاد حارة واحدة ومتقاربون في العمر، وكلهم ذوو طموحات داخلية مكبوتة باستثناء «أبو منصور» الذي أفرج عن طموحاته مبكراً.

عندما عاد أبو منصور وأبو مرزوق من بانكوك كانت الرياض قد تغيَّرت.. ثلاثة أشهر لم تكن وقتاً قصيراً في تلك الأيام، حيث حركة التغيُّرات الاجتماعية في السبعينيات، ولكنها وقت قصير للغوص في فتنة الشرق التايلندية.. عادا بعد أن انتهت الفلوس، ولم يعد أحد على استعداد لتحويل أي مبالغ لهما.. كما أعرض السعوديون من زملائهم في بانكوك عن تسليفهم.. على قاعدة (نفسي نفسي). سُدَّت في وجوههم كل السُّبل للبقاء ولو دقيقة واحدة هناك. عادا إلى أرض الوطن بعد أن عقدا العزم على العودة إلى بانكوك مرة أخرى مهما كلف الأمر.

زارا بانكوك بعد ذلك أكثر من عشرين مرة.. رافقهما أبو سالم في أكثرها بعد أن انحلت عُقدة تردُّده وخوفه.. أبو سالم من النوع الذي يحتاج إلى تشجيع. تبيَّن في الأخير أنه إذا مسك الخط لا يجاريه أحد.. أصبح من سكان بانكوك تقريباً.. حتى أن «أبو منصور» ذهب في إحدى المرات إلى بانكوك لإحضاره بعد أن

اشتكى أولاده من كثرة تغيُّبه. وتعهَّد لهم أن يحضره في بحر أسبوع، ولكنهم عادوا بعد ثلاثة أشهر، حيث لحق بهما أبو مرزوق لإحضارهما عندما اشتكت زوجة «أبو منصور» أيضاً.

أبو سالم من النوع الذي لا يدخِّن في منزله.. كتوم.. يعمل كل شيء في الخفاء.. لا يريد أن يعرف أبناؤه أي شيء عنه.. سافر إلى بانكوك وكازا ولندن وأسمرا وباريس والقاهرة دون أن يُخبر زوجته أو أبناءه بذلك.. يأخذ اليوم الأخير من الإجازة إجازة.. في هذا اليوم لا يدخّن، ولا يتصرَّف أي تصرُّفات خارجة عن قانون البيت.. يترك زملاءه في الفندق ويذهب إلى السوق يشتري مقاضي وهدايا، فيضطر أن يتعرَّف على البلد.

ويعدُّ أبو سالم أكثر الشلة معرفة ببانكوك، فهو الوحيد الذي زار الأسواق وبعض المناطق السياحية التقليدية هناك، حيث يجد البضائع الرخيصة.. واليوم الأخير من كل سفرة يقضيه خارج الفندق.. يركض هنا وهناك لعله يجمع أكبر قدرٍ من البضائع والهدايا، ويشمُّ شيئاً من الهواء الطلق بعد سجن في الفندق دام أسابيع أو أشهراً.. يريد أن يعود إلى زوجته وأبنائه نشيطاً وقوياً، وكأنه للتوِّ خرج من المنزل. لا يخبر أحداً أين ذهب ولا يجرؤ أحد على مناقشته في ذلك.. ولا يقص أحداث سفراته. عندما لاحت فكرة الاستراحة كان أول المشجِّعين لها، وأول المتبرعين لإنجازها.

في الاستراحة أعاد لهم زمن الكبسات في فلل كازا وفندق قريس، وفي الفنادق الرخيصة على شارع «مابيني» بمانيلا.. يطلب من الهندي أن يقطع البصل والطماطم والدجاج، وينقع الرز، وبعد أن تنتهي وصلة روبي ينهض ويركب القدر، ثم يعود مسرعاً لكي لا تفوته باسكال. وإذا أردفت القناة باسكال بنجوى كرم يضطر أن يطلب من الهندي أن يشوف القدر هو نشف أم لا.. ولكن غالباً ما يذهب بنفسه للتأكد من القدر؛ لأن الأغنية التالية لأحد المطربين الذكور.. لا ينافسه في البقاء في الاستراحة سوى الحارس الهندي.. كل أعضاء الاستراحة يذهبون ويعودون في فترات متقطعة إلا هو. صار يقضي وقته كله في الاستراحة. تحرَّر من زمن الزوجة والأولاد القديم.. قرر أن يعوِّض ذلك اليوم الذي كان يبدِّده في سفراته القديمة استعداداً للعودة إلى الوطن بالبقاء في أحضان الفضائيات المتلاطمة ناصباً نفسه حَكماً على الجمال بمعايير لا يعرفها سوى أعضاء استراحة «شويمطة»، وكل من جابوا بقاع الأرض المفعمة بالجمال المبذول.

أبو مشعل هو الوحيد من شلة استراحة «شويمطة» الذي لم يترعرع معهم منذ نعومة أظفاره، لم يبدأ من أيام سفرات البحرين وعبدان.. التقى به أبو منصور بالصدفة المحضة في بانكوك. من سهرة واحدة أصبح من أعضاء الشلة.. وجهه وأداؤه من النوع المألوف فتمَّ ضمّه، إما أن يسافر معهم أو أن يواعدهم في مكان ما

من هذا العالم. اعتاد السفر وحده، يقيم صداقات مؤقتة تنتهي مع السفرة نفسها، ولكنه لم يقاوم الانضمام إلى شلة «أبو منصور».. شلة متكاملة ومتجانسة، ونصف شبابية.. تتحرك في العالم بروح الشباب، وتتعاطى في أعمالها بحِكمة الشيوخ.

أهم المشكلات التي منعته من الانضمام السريع إلى الشلات حساسية خفيفة في الصدر تتفاقم في الأماكن المزدحمة والغرف المكتظة، لا يحب الدخان، بالكاد يضرب رأس شيشة واحد في اليوم، شرط أن يكون جراك باعشن أصلي، لم تتكيَّف رئتاه مع المعسل أبداً، كان يرفض شُرب المعسل دون أن يُبدي الأسباب، ويصرُّ على الجراك، ويمدحه بمناسبة وبدون مناسبة، فاتهم بالجمود والتحجُّر، في الوقت الذي عُرف عنه المغامرة والتحرك السريع..

في إحدى السنوات كان في بانكوك وسمع أن «أبو منصور» والشلة كلها في كازا.. كان في رأسه مشروع العمر.. لقد حان موعد تنفيذه، انطلق من بانكوك إلى باريس، ومن باريس إلى كازا. ثلاث قارات في أربع وعشرين.. تشكَّل المشروع في رأسه منذ سنوات.. في أحد الأيام تضايق من البقاء طويلاً في زحمة مقهى عمورة في شارع خالد الشهير في كازا، فخرج ووقف أمام الشاطئ يجدِّد الهواء في رئتيه، ويتأمل في المحيط الأطلسي، مادّاً ثاقب بصره في

بحر الظلمات الذي يفصل العالم عن قارتي أمريكا، وكأنه يعتب على أجداده الفاتحين الذين توقفت رحلاتهم هنا.

تذكَّر ما سمعه عن شاطئ «كوباكبانا»، فقرَّر أن يضمَّه إلى الأراضي المفتوحة التي رُفعت عليها رايات الفاتحين الجُدد، يريد أن يواصل الفتوحات التي بدأها أبناء جيله، حرَّضه بعد ذلك فيلم قصير عن كرنفال البرازيل الشهير، تأكد من أن هناك أرضاً تحتاج إلى سيفه المسلول.

ثارت فيه روح المغامرة التي تتملكه، على استعداد لأن يضحِّي بأسبوع من إجازته ليكتشف أصقاعاً جديدة، سافر إلى نصف بقاع الأرض. لا يمكن أن تكون بانكوك فريدة من نوعها في هذا العالم.. حاول إقناع «أبو منصور» بالسفر معه إلى «ريودي جانييرو».. لم يبقَ إلا نصف المشوار. الرحلة من كازا إلى «ريو» لا تتعدى إحدى عشرة ساعة.. فتح، غمّض.. وإذا بك على شواطئ «كوباكبانا» الدافئة، لم يكن مشروعاً ثانوياً. إنه استكمال لأضلاع مثلث الجمال العالمي.

جلسات بعد الظهر في كازا تكون عادة جلسات مراجعة ودراسات وتبادل وجهات النظر، ووضع الخطط المستقبلية، والأهم الاستعداد لسهرة الليلة، من حيث المبدأ، لا مانع من السفر إلى «ريو»، ولكن هناك بعض المشكلات، فالجماعة كلهم

متزوِّجون.. لا يريدون الدخول في مشكلات من أي نوع، كانوا يتخيَّلون المشكلات التي يمكن أن تحدث ويطرحونها، وأبو مشعل يفندها واحدة تلو الأخرى، اقتنعوا بكوباكبانا، ولكنهم لم يتوصلوا إلى قناعة مشتركة لقضية الأمن.. شهرة ريو في هذا المجال لا تسرُّ.

انتهت تلك الجلسة، وجلسات كثيرة أخرى دون حسم للقضية بعد أن أصرَّ أبو منصور على رأيه.. وفي الأخير تمَّ تجميد ملف «ريو» إلى أن شاخت الآمال، وتحوَّلت المغامرات إلى ذكريات.. لتتجمع «كركام» في استراحة «شويمطة».. ولكن الأماني المضطهدة لا يمكن أن تزول من النفس بسهولة.. وفي كل مرة تظهر «شاكيرا» على الشاشة يتنهَّد أبو مشعل، ثم يتمتم فيفهم الجميع مغزاه، فيردُّ عليه أبو منصور: يا ابن الحلال صجّيتنا بالبرازيل.. اللي راح راح، فينبري أبو مرزوق: إذا كانت «شاكيرا» ما زالت على الشاشة.. تبي الصحيح يا «أبو منصور».. أنت السبب.. طعنا شورك وهذي النتيجة، حتى الهندي إذا كان في تلك اللحظة واقفاً يباشر أو يضبط الراس وعيونه تبحلق في «شاكيرا».. يتفهَّم موقف «أبو مشعل»، فيتدخَّل قائلاً دون تدبُّر: صحيح أنت ما في كويس «أبو منصور».. ليش ما يروح برازيل؟! فيعلّق أبو مشعل متشفياً: خلها على الله يا رانجيت.

* * *

الفهرس

هذا الكتاب

قبل كم يوم التقيته بالصدفة في سوق عتيقة. لم أره منذ حوالي ثلاثين سنة. لم يكن بيني وبينه تلك المعرفة. كل الذي كان بيني وبينه إعجاب مشترك لمجموعة من الأغاني الجميلة. كنت أراه تقريباً يومياً في الأيام الأخيرة من رياض السبعينيات. في ربيع سنة ستٍ وسبعين ميلادية على وجه التحديد. منذ تلك الأيام لم أشاهده، ولم أعُد أسمع عنه كثيراً.

في الأيام التي عرفته فيها كان (دائماً) عمره أربعين سنة. لقد تسمَّر في مخيّلتي بهذا العمر. ربما كان عمره أصغر من أربعين سنة في يومٍ الأيام. ولكنه بدأ في ذاكرتي بهذا العمر، وانتهي من حياتي بهذا العمر.

لو لم ألتقِ به في عتيقة مؤخراً لربما مات وهو في الأربعين من عمره. شاهدته يسير بين الجموع متهدماً خائر القوي، يقوده هندي، من الواضح أنه سائقه. تركتُ ما في يديَّ ولحقت به. كان يبعد عني حوالي أربعين متراً. اقتربت منه. لم أشأ أن أسلِّم عليه أو أوقظه على الماضي بطريقة فجة.. رُحتُ أتأمل فيه وأطالع آثار الزمن. كم بقي لي من العمر لأصل إلى كل هذا التفكّك. اقتربت منه أكثر وأكثر حتى أصبحت خلفه تماماً. لابد من اتصال معيّن.

فجأة طرأت على بالي فكرة سوف تحطم السنوات الطويلة. تزيل الثلاثين سنة الماضية، وترمّم الانهيارات التي أحدثها الزمن في جسده. قرَّرت أن أبدأه من حيث انتهينا. من آخر شيء مشترك. اقتربت من أذنه وغنَّيت بصوت خفيض: (صعب علي جفاك بعد اللي شفته في حبك.. مش قادر أنسى رضاك أيام ودادك وقربك....) قبل أن أتمّ المقطع التفت وقال دون تردد: أكيد واحد من أهل العسيلة.. حسبي الله ونعم الوكيل.

طوى للنشر والإعلام
منشورات 2012
وخير جليس في الزمان طوى